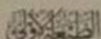
سوار أمي

علي بن جابر الفيفي

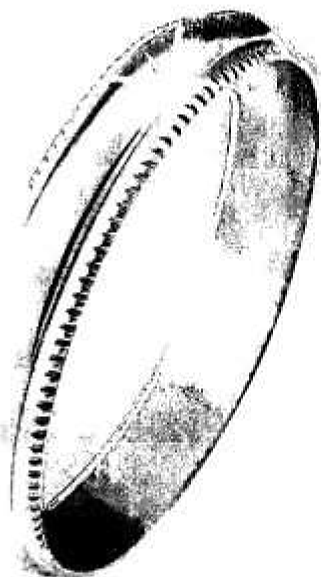


دار الحضارة للنشر والتوزيع



سوار أمي

علي بن جابر الفيفي



الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ/٢٠١٧م

الإهداء

إلى صاحبة السوار ..

ابنكِ

المقدمة

الحمد لله، الصلاة والسلام على رسول الله أما بعد

فهذه مقالات كتبتها متتابعة، في مدَّة زمنية متقاربة، ورأيت أن موضوعاتها يرمق بعضها بعضًا بطرْف خفيٍّ، وطابعها متشابه متجانس، وذلك جعلني أتشجَّع في ضمِّ بعضها إلى بعض، وإخراجها في كتاب، يلمُّ شعثها، ويجمع متفرقها..

حاولت في هذه المقالات أن آتي بشيء مما حدث لي أو لمن أعرفه في مدرسة الحياة، ثم أمزجه بتأملات سنوات العمر، المستفادة من آية محكمة، أو حديث يشعُّ نورًا، أو حكمة بالغة، أو بيت شعر، أو تعثّرٍ رماديّ، أو ابتسامةٍ ورديّة، ثم صببت ذلك في أسلوب حرَصت أن يكون سهلاً، قريب المأخذ، يفهمه متوسّط الثقافة، ولا يزدريه المتقدِّم في العلم والمعرفة إن شاء الله.

تحدثت في هذا الكتاب عن الأم وقلبها النابض، والأب وحنانه الدافق، والمعلم وحدبه على تلاميذه، والأخ الذي يقاسم

أخاه الروح والنبضات، والأحلام والتطلّعات، والصديق الذي يجمّل وجوده الحياة..

تحدثت أيضًا عن الكلمة النبيلة، والأخرى المسكونة شرًّا، تحدثت عن الشهامة، وعن الطيبة التي تمتلئ بها قلوب الناس، وقلت شيئًا عن أمراض النفوس، وأدواء القلوب..

لم آت في الكتاب بالمستغرب، ولم أستجلب العجائب، أو أنقِّب عن الشرائد بل حاولت أن أنظر إلى المناظر نفسها، وأتأمل المشاهد نفسها التي يراها الجميع، ولكنّي استخدمت عدسة أخرى، هي عدسة ذاتيَّة بحتة، تحمل ألواني الخاصة، وتجربتي المتواضعة.. فأتيت بالمعروف، المشهور، ثم أعدت إنتاجه وصياغته، بضرب مثال، أو مزيد توضيح، أو إضافة ظلال..

أسأل الله أن تجد ـ أخي القارئ ـ في هذا الكتاب بغيتك، فإن لم يكن ذلك، فسامح مجتهدًا أراد الخير.. والله يغفر لي ولك..

علي جابر الفيفي

٩/٤/١٤٣٨هـ

ميثاق

ســـأظلّ وفيّـــا يا أمّـــي لحنانـــكِ ســـأظلّ وفيّـــا

في قلـــبي همّتـــك انغرســـت وعطـــاؤك أزهـــر بيـــديّا

وحكاياتـــك باتـــت أمـــلاً في حقـــل حيـــاتي ورديّا

ودعـــاؤك في الليـــل أمـــان يبقيـــه الإخـــلاص نـــديّا

يا أمّـــي ضـــمّتك الأولى مازالـــت حضـــناً أبـــديّا

مازالـــت حبّـــاً وشـــعوراً كالجنّـــة يبقيـــني قـــويّا

سوار أمّي

أما أمي فلم تكن صاحبة مال حتى تحقق أحلامي!
ولكنها كانت صاحبة قلب عظيم، ما عجزت عن
تحقيق أحلامي .. جعلتني حلمها، وسعت في تحقيقي

سِوار أمِّي

إذا كنتَ غنيًّا، فإنَّك تستطيع أن تعطي أشياء كبيرة، وتقدِّم هدايا فخمة، وتتصدق بأموال طائلة، ولكن الوضع يختلف إن كنت فقيرًا، فإنَّك لن تستطيع أن تقدم أشياء كبيرة، ولا هدايا فخمة، كل أشيائك التي ستبذلها للآخرين ستكون صغيرة، يسيرة، عليها غبار ضيق ذات اليد، وتسكنها بحّة أصحاب الكلمات الجريحة

ولكن هناك شيئًا إذا ما أضفته إلى عطاءاتك الصغيرة، واليسيرة، والمحدودة ستتحوَّل تلك العطاءات إلى أشياء عظيمة، جليلة، خالدة!!

ما هذا الشيء؟

عطر الإنسان

عام ١٤٠٤هـ كنت طالبًا في الابتدائية السعوديَّة بمدينة تبوك،

يتيمًا، فقيرًا، ليس عندي أب لأطلب منه ما يطلب الأطفال من آبائهم! ليس عندي أب أدفن وجه طفولتي في حضنه عصريات ذلك الزمن الغابر، وأنا أشاهد مسلسل «(هايدي)» وأغمس البسكويت في كأس الشاهي البارد.. كان الأب في خيالاتي صورة من حُرقة ألم، وشتات ذكرى، فقط لا غير..

أما أمي فلم تكن صاحبة مال حتى تحقق أحلامي! ولكنها كانت صاحبة قلب عظيم، لما عجزَتْ عن تحقيق أحلامي.. جعلتني حلُمَها، وسعَتْ في تحقيقي

رأيت زميلي في الفصل (عبد الله قاسم) يُخرج من حقيبته شطيرة ذات حشوة سوداء غريبة! يسيل الزيت القاتم من أطرافها، ويظهر لي من طراوتها أنَّها لذيذة، فجعلت أنظر إليها بتأمُّل، وأعقد مقارنة بينها وبين فسحتي التي لم أكن أعتقد لذَّتها، ولعلَّ ذلك الزميل الطيب لمح في عينيَّ نظرة يتيم، هزيل الجسد، يحارب بصمت جيشين: جيش الجوع الشديد، وجيش الرغبة العارمة، فقسَم لي نصف تلك الشطيرة! شعرت أنَّه قسم لي نصف ثروته، وأنه تنازل لي عن نصف مملكته، وصار في نظري أكرم من كافور

الإخشيدي مع المتنبي! أكلت ذلك النصف، وأبديت له إعجابي الشديد بتلك الشطيرة وبحشوتها الغريبة جدًا..

في اليوم التالي نسيت كل شيء، فلم أكن أدرك أن مثل هذه الأمور يجب ألا تُنسى! ولكن قَلبًا آخر لم ينس، تفاجأتُ بعبد الله وهو ينظر إليَّ مبتسمًا، ثم أخرج من حقيبته شطيرتين! نظرتُ إليه، فأخبرني أنَّ أمَّه صنعتْ اثنتين، واحدة لي وأخرى له! شعرتُ بسعادة شديدة، شعرتُ بشيء كالاحتضان غمرني..

ولعلَّ «أمَّ عبد الله» الكريمة لم تُرِد لسعادتي تلك أن تنطفئ، فأضافتني بكرمها ونبلها إلى قائمة أبنائها، فصارت شطيرة (الزعتر) اللذيذة فُسحتي الدائمة، دون أن أعرف اسم تلك المرأة، بل ودون أن تعرف هي اسمي، أو ملامحي، أو مقدار هواني على الناس، إن الإنسان العظيم الذي داخلها قرر أن يبذل شيئا (يسيرًا) للكائن الضئيل الذي داخلي.. ولكن ذلك الشيء اليسير تحوَّل إلى الخلود؛ لأنَّ أم عبد الله أضافت عليه رشَّة من عطر الإنسان

محذوف وجوبًا

عطر الإنسان هو شذى خاص ما إن ترشَّه على عطاء حتى يغدو شيئا آخر، يصبح الريال كرمًا، والتمرة جنَّة، والابتسامة بوابة فأل، وشطيرة الزعتر ذكرى تستعصي على النسيان

«ابتسامتك في وجه أخيك صدقة» إن هذا الدين يخرج الأشياء العاديَّة لتغدو كرامات، ومعجزات، وميتافيزيقا مدهشة!

هذه الابتسامة التي تساوي (لا شيء) في عالم أحد معاييره:

ألا لا يجهلــــنْ أحــــدٌ علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

تغدو: صدقة، عطاء، حبًّا، دفئًا

حصلت بيني وبين مسؤول الطلبات في إحدى المطاعم خصومة، فرأيته بشعًا وظلال الغضب تمور في وجهه، لم أستطع بعد تلك الخصومة أن أزور ذلك المطعم لأشهُر عدة، ثم وعلى حين جُرأة زرته، وأنا أنوي ألا أراه، عقدتُ اتفاقًا مع عينيَّ ألا تنظرا صوبه، ولكن التفاتة خاطفة من عيني، أفسدت تلك الاتفاقيَّة! فرأيت أجمل ما فيه! رأيته مبتسمًا، رأيت وجهًا آخر،

شعرت أن إنسانيَّة ما احتلَّت ملامحه، لقد جعلته الابتسامة خبرًا لمبتدأ محذوف وجوبًا تقديره الجمال..

لقد غسَلَتْ تلك الابتسامة الطيّبة خصومتنا السابقة، مددتُ يدي مصافحًا ولسان حالي:

من اليوم تعارفنا ... ونطوي ما جرى منّا

فلا كان ولا صار ... ولا قلتم ولا قلنا

كفى ما كان من هجر ... وقد ذقتم، وقد ذقنا

ما أروع أن تغدو جميلا، أن تحوِّل كلامك إلى ابتسام، ونظراتك إلى رحمة، وعطاءاتك إلى عطر

بهذه الكيمياء أنت تكتسب من الكون أغلى ما فيه، وتسكنه أشياءك العاديَّة، لتغدو شيئًا ينبض ويتوهَّج ويشعُّ

وصدق القائل عليه الصلاة السلام: «**ابتسامتك في وجه أخيك صدقة**»[1]؛ فهي صدقة لأنها بذل، وهي صدقة لأنها أجر، وهي صدقة لأنَّها صِدق!

لا يستطيع الكاذب أن يبتسم لك، نعم يستطيع أن يظهر

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص٣٠٧) (٨٩١). وصححه الألباني..

أسنانه، ولكن إظهار الأسنان شيء، والابتسامة شيء آخر..

السوار العجيب

زارتني سيدتي الأولى في بيتي ذات فقر ومسغبة، فرأيت في عينيها ما تمنيت أن تندك جبال الدنيا ولا أراه، رأيت رغبة بحجم مجرَّة درب التبانة في أن تساعد ابنها، أن تمد يد العون له في حقبة كان فيها لا يملك ثمن وقودٍ لسيارته!

كانت أمي طيبة جدًا، كل شيء فيها حنون، تنقصها أشياء كثيرة حتى تكون امرأة غنيَّة، ولكن لا ينقصها شيء حتى تكون أمًا

كانت تملك ثلاثة أشياء: قلبًا جيِّدًا، ودعوات صادقة، وسوارًا من ذهب..

ولما حانت لحظة الوداع.. نزعَتْ سوارها الذهبي وأودعته جيبي، ومزجته بشيء من قلبها، ذلك الشيء كان أغلى من الذهب..

بقيت ثلاثة أعوام تقريبًا تُطوّح بي الظروف ذات اليمين وذات الشمال، وذلك السوار يهمس في أُذُني: «أنا بين يديك، متى ما شئت أن تبيعني بعني» وتشتد الظروف، ويتحوَّل الهمس إلى صراخ.. ولكنِّي كنت متمسكًا بالسوار العجيب، وكأنه يد أم تعبر بطفلها شارع الحياة المزدحم..

كنت أنظر إليه على أنَّه أم في هيئة شيء، قلب في صورة سوار، دعوات ستستجاب بعد قليل

وكلما رضَّتني المواقف، وحاصرني الخواء، وأمرتني الفاقة أن أبيع ذلك السوار، قالت لي الحكمة، والحنين أيضًا: احتفظ به، ليكون دفئًا تشعر به، وأمانًا تتلمّسه.. إن وجود هذا السوار هو وجود لأشياء تشبه حضن أمّي، وقلب أمي، ودعوات أمي، وأمي

كنت إذا أحاطت بي الظروف، تذكرتُ السوار فابتسمت.. وإذا شعرت أن جيبي ليس به إلا ثلاثة ريالات، تذكرت أن السوار موجود في بيتي فتفاءلتُ..

لم يعد السوار في نفسي قطعة ستتحول إلى مال إن بعتها، بل صار أنسًا، وثباتًا، ودفئا، وحبًّا، وأشياء أخرى

وبعد ثلاث سنوات، فتح الله عليَّ.. فوقفت أمام سيِّدتي، وبيدي شيء ظنَّتْ أنِّي قد بعته منذ زمن.. فإذا أنا أقدِّمه لها، وأعيده إلى يدها الغالية.. وكان ما كان

إن عطر الإنسان، وشذى الأم، وإكسير الرحمة قد حوَّل ذلك السوار إلى دفء جعل أحلامي -على الأقل- أجمل مما ينبغي أن تكون عليه..

في الزمن الذي كانت أمهات كثير من الشباب يهدينهم أغلى الساعات، وأفخم السيارات، وأجمل البيوت.. كانت أمِّي تنتزع سوارها لتسكت صوت فجيعة الأم بولدها المنهاك وهيهات

إنه عطر الإنسان حينما يحوِّل الأشياء التي يظنها البعض عاديَّة، إلى كنوز تتضاءل اللغة عن وصفها..

يشبه الإنسان

أنت أيها الإنسان تحتوي على أغلى مادَّة في الكون، إنها مادَّة لا يمكن أن تسمَّى إلا الإنسانيَّة، هذه المادَّة إذا ما سكبتها على

أي فعل مهما ظهر يسيرًا، يغدو عظيمًا، شاعريًّا، متخمًا بالجمال..

طفل يمد جسده ويجعله جسرًا يصل بين حافتين، حتى تعبر من فوقه أخته.. هذا المشهد في لغة المصنع، والورشة، والمادة لا يساوي أكثر من دولار تدسُّه في جيب ذلك الطفل الطيب، ولكنَّه في لغة الإنسانية يساوي قارَّة بأكملها، مع ثلاثة بحار زاخرة بالكنوز!

إن النبل يكمن فيما هو إنساني، وكلما ابتعدت عن هذا الشيء النفيس في نفسك تتحوَّل إلى قطعة خزف، والخزف مهما ظهر جميلاً إلا أنه في النهاية يتهشَّم، ويتكسَّر

إحدى أخواتي، ينبض قلبها بالإنسان، إذا ما أتت إلينا لم تتكلَّف الهدايا الفخمة، المغلَّفة برقائق السلوفان الملوَّن، هداياها من الموجود في بيتها، القريب المنال، أيِّ فاكهة في ثلاجتها، أيِّ مشروب سهل التحضير، أيِّ كعكعة قليلة التكاليف تصنعها، ستكون هديَّتها، ولكنِّي دائمًا أتذوَّق في هداياها نكهة لا أجدها في قطع الحلوى الفاخرة المجلوبة من أرقى محلات الحلويات.. شيء

لا يشبه الشوكولاتة، ولكنَّه يشبه الإنسان..

هذا الشيء الذي يشبه الإنسان موجود لديَّ ولديك.. يجب عليَّ وعليك أن نضخَّه فِي كلماتنا، وابتساماتنا، وعطاءاتنا.. حتى نوقد مصابيح الجمال فِي أزقَّة الحياة التي أحاط بها القبح من جهاتها الأربع!

ليس نصفًا..

زارت امرأة وبُنيَّتاها عائشة ــرضي الله عنهاــ، فلم تجد عائشة ما تقدمه ضيافة لهنَّ غير ثلاث تمرات، فأكلت البنتان تمرتيهما، وانشغلت الأم بالحديث مع الصدِّيقة، فإذا بعينيهما ترمقان التمرة الثالثة، فآثرت الأم البنتين، فقسمت التمرة جزأين، وأعطت كل واحدة جزءًا

لما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بما حدث، فعجب النبي ﷺ من ذلك وقال: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**[1] !

---

(١) أخرجه البخاري (٢/١٠٩) (١٤١٧)، ومسلم (٢/٧٠٤) (١٠١٦).

إنَّه شق تمرة مبارك، شق تمرة قد يقيك من لفح لظى، وسعير الجحيم!

إنه شق تمرة مسكوب عليه رحيق الصدق، ومنثورة عليه قطرات الحنان الإنساني..

لو قمنا بتحويل نصف التمرة إلى مال، فكم هللة يساوي هذا النصف؟

ولكن إذا أعدنا نصف التمرة إلى وضعه الممتلئ بالصدق، بالرحمة، بالإنسانية، فكم يساوي؟ إنَّه يساوي جنَّة عرضها السماوات والأرض؟

إذن المعادلة ليست ماديَّة أبدًا، والذي لم يعطك المال، أبقى أهم الأشياء، وأغلى الكنوز، وأثمن المجوهرات بين يديك ويدي الجميع، فليأخذ منها من شاء ما شاء..

احفظ الله

لا تعوِّد أبناءك أن تكون هداياك باهظة الثمن، حتى إن كنت

تستطيع أن تشتري، عوِّدهم أن تكون هداياك لهم أشياء يمكنهم أن يهدوك مثلها، ووسِّع معنى الهديَّة بالكلمات التي تأتي معها، فعبارات الحب، ورحيق الصدق الذي تسكبه فوق هداياك، يكون أهم من الهدايا ذاتها، ويحوّلها إلى أشياء لا تُنسى!

رسولك الكريم ﷺ كان يستطيع أن يهدي ابن عباس بستانًا، أو سيفًا، أو خيلاً، ولكنَّه قال له: «**يا غلام، ألا أحبوك؟ يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ..**»[1]

في نظرنا هذه الهديّة مجرد كلمات، وفي الحقيقة كانت مشروع حياة

إنها كلمات جعلت من ابن عباس عالمًا وجعلت الكلمة أهم ما يشغل باله، جعلته يصوغ الكلام صوغًا فريدًا لأن أعظم هديَّة جاءته في حياته هي أحرف نورانيَّة مقدمة من سيِّد الخلق عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٤/٦٦٧) (٢٥١٦). وصححه الألباني.

أشياؤك التي تعتقد أنها عاديَّة، دائمًا هي الأشياء التي يتذكرها الآخرون، لأنَّك قدمتها لهم على طبق من صدق..

لماذا دائمًا يذكِّرنا الآخرون بالأشياء التي لم نتجشَّم[١] في قولها، أو تقديمها، وينسون الأشياء التي دفعنا فيها الأموال الطائلة؟ الناس لا يريدون ما في جيبك.. هم يريدون ما في قلبك.. فأعطهم نبضًا.. وحبًّا.. وصدقًا..

توقيع

ليس الجميل هو ما تقدمه للآخرين، الجميل هو روحك الصادقة التي ستضعها في تلك الأشياء التي ستقدمها لهم، فعند الناس حاسّة نافذة يدركون بها الأشياء الممزوجة بالأرواح؟

(١) نتكلّف ونستعدّ.

بائع الخردوات

هناك أناس بالقرب منك، لا تدرك مقدار الفوائد التي تجنيها بسبب ذلك القرب، وما مدى المخاطر التي كنت ستقع فيها لو كانوا على مسافة أبعد من تلك المسافة التي تفصلهم عنك!

بائع الخردوات

كنت سائرًا في المساء على امتداد شارع عام، فإذا بسيَّارة بها ثلاثة شبَّان تقف بجواري، كان نوع السيَّارة، ومنظر الشبَّان يثير الشكوك

كنت وقتها طالبًا في المرحلة المتوسطة، لا قوَّة عندي، ولا حتى شجاعة كافية لمجابهة مجموعة من الرجال المرضَى!

سألني الجالس في المقعد الأمامي عن بيت فلان بن فلان، ولحسن الحظ فإن بيت هذا (الفلان) على مرمى النظر، فأشرت بإصبعي للبيت المسؤول عنه! فإذا بهم يطلبون توضيحًا أكثر، فكررت الإشارة، وقلت لهم مستغربًا: هو ذاك! فإذا بالراكب في الخلف يفتح الباب ويطلب منِّي دخول السيَّارة لإيصالهم إلى البيت فهم لم يفهموا وصفي جيِّدًا علمت لحظتها أنِّي قاب قوسين أو أدنى من اختطاف خشيت أن أهرب فيكون ذلك إيذانًا منِّي لهم، حتى يكونوا أكثر وضوحًا، فيمسكوا بي ويدخلوني السيارة

قسرًا.. فزدت في مداراتهم، وإن كنت قد احتفظت بمسافة أمان بيني وبينهم.. وإذا بعينَي الراكب الأمامي وقد كانتا تنضحان بشيء مخيف لم أره في حياتي، شيء يشبه تراكم المعاصي في القلب، إذا بهما تتجهان إلى جهة معيَّنة ثم يقرر -فجأة- أن يُنهي كل شيء بشُكري.. أغلق الراكب الخلفي الباب، ثم انطلقت السيَّارة!

كان قلبي يدق بصخب، وقدماي لا تكادان تحملانني بسبب الفتور الذي يعقب الارتجاف والخوف..

ظللت واقفًا أسترجع فِلمَ الرعب الذي مرَّ بي، وأفكر: كيف أنجاني الله منهم، ثم حانت منِّي التفاتة إلى الجهة التي نظر إليها ذلك الرجل، فإذا ببائع (خردوات) ضخم الجثَّة، أردني الجنسيَّة، واقف عند باب دكانه الكبير بالقرب منَّا كان ضخمًا لدرجة أنَّ ذلك الرجل خاف -فيما يبدو- من سطوته، أو قد يكون ظنَّ أنِّي سأهرب إليه فينجدني، أو حتى أنه سيقوم بتسجيل رقم السيَّارة ثم الإبلاغ عنهم!

وجود ذلك الرجل كان السبب الذي قدَّر الله به نجاتي من براثن أولئك المرضى! لم أعلم مكانه في تلك اللحظة، ولم أنتبه

لوجوده، بل لم أدرك أنِّي قد بتُّ قريبًا من دكّانه.. ولكنْ؛ إن قدّر الله لك النجاة جعل مثل هذا الأمر يحدث.. وأعمق من هذا كلِّه فيما أرى هو أنِّي لو لم ألتفت إلى تلك الجهة، أو حتى لو لم ألمح نظرة الشاب إلى تلك الجهة؛ ما كنتُ لأعلم سبب انصرافهم عنِّي!

والسؤال: تُرى كم عدد الأشخاص الذين يتسببون بجلب خير لنا أو دفع شرٍّ عنَّا ونحن لا ندري؟

هناك أناس بالقرب منك، لا تدرك مقدار الفوائد التي تجنيها بسبب ذلك القرب، وما مدى المخاطر التي كنت ستقع فيها لو كانوا على مسافة أبعد من تلك المسافة التي تفصلهم عنك!

بعض هؤلاء الأشخاص يمكنك أن تعرف أو تتوقَّع فائدتهم، ولكن الأكثر لا تتوقع ولا تظنّ أن لقربهم منك فائدة، ولا تدرك ما الأشياء التي يفعلونها لأجلك دون أن تدري!

نظرية الكرسي

لم أكن أظن أنّه بالإمكان إيصال فكرة عميقة في وقت قصير

جدًّا؛ حتى رأيت مقطعًا من أربع ثوانٍ يتحدَّث عن فكرة بائع (الخردوات) بصورة أكثر عمقًا!

تتلخَّص فكرة المقطع القصير جدًا في رجل كان يجلس على كرسي صغير في مقهى يرتشف القهوة، فدخل المقهى صديق له فقام لمصافحته، وفي هذه اللحظة يسحب رجل كان بالخلف منه كرسيَّه، وذلك قد يجعل صاحبنا يسقط سقوطًا مؤلما على الأرض، ولكن قبل أن ينحني للجلوس ينتبه رجل آخر لما حدث وقد كان يرتشف قهوته بهدوء، فيدفع كرسيًّا كان بجواره إلى جهة صاحبنا، فلا يجلس إلا عليه، وصاحبُنا لا يعلم بكل ما حدث، ويواصل ارتشاف قهوته هذا هو المقطع بكل بساطة!

يقول المقطع: إن ذلك الرجل الناهض كان سيسقط؛ لولا الله ثم وجود شخص شهم خلفه أنقذه من ذلك السقوط والسؤال الذي أثاره المقطع في ذهني هو: كم الأشخاص الذين دفعوا إلينا بكراسٍ منعتنا من السقوط، لم نعلم بوجودهم، وواصلنا ارتشاف قهوتنا بهدوء دون أن ندرك السقوط الذي كان ينتظرنا لولا الله ثم وجودهم بالقرب منَّا؟

إن إدراكك لنبل شخص ما يستجلب شعورا جميلا لا يمكن وصفه، وإن كان الزمن الذي أدّى فيه نبله قصيرًا جدًّا.. والسؤال هو: كم النبلاءُ الذين أنقذك تدخلهم في الوقت المناسب من إحراج ما، أو أسكت وجودهم في مجلس من المجالس غيبة كانت سمعتك هي الوجبة المقترح أن تستقر على طبقها؟ أو أنَّ وجودهم في شجرة نسبك جعل كثيرًا من التسهيلات المجانيَّة تُقدَّم لك دون أن تشعر؟ هؤلاء النبلاء ألا يستحقون منك شكرا؟ أو امتنانًا؟ أو حرصًا على بقائهم بالقرب منك؟ أو أن تقتدي بهم، فتؤدِّي لمن حولك خدمات مجانيَّة لا يعلم بها إلا الله؟

التولِّي إلى الظل

الإسلام يريدك أن تكون مجَّانيًّا، تقدِّم خدماتك للآخرين دون مقابل، أو أن يكون جزء من خدماتك على هذا النحو!

يخبرنا سبحانه وتعالى في قصَّة موسى _عليه السلام_ أنَّه لـمَّا ورد ماء مدين وجد امرأتين تذودان، لا تستطيعان أن تردا الماء مع

الواردين، لخَفَرِها[1]، وضعفهما.. فيقوم موسى المُتعب، موسى المهدد بالقتل، موسى القادم لساعته من رحلة الفرار المنهكة للروح والجسد، يقوم فيسقي لهما، يقدِّم لهما الماء، ثم يوليهما ظهره دون انتظار كلمة «شكرًا» كانت كميَّة الشهامة في الموقف غزيرة، قال الله سبحانه وتعالى واصفًا لها: «فسقا لهما ثمَّ تولَّى إلى الظل»! ليست هناك لحظات انتظار للشكر أو إعطاء الأجر.. تولَّى مباشرة إلى الظل!

هذه المجانيَّة هي طريق العطايا الإلهيَّة، فبعد دقائق من هذه الخدمة المجانيَّة التي أسداها موسى ـعليه السلامـ يأتيه: السكن، والوظيفة، والزوجة، والهدوء النفسي.. بل وبعد عشر سنوات تأتيه النبوَّة!

يجب عليك أن تفرش طريق العطايا بالمجانيَّات.. بالخدمات التي تقدمها دون مردود، وبعد ذلك لا تسل عمَّا سيفعله لك الكريم سبحانه..

يسأل أبو ذر النبي ﷺ فيقول: أيُّ العمل أفضل؟ فيقول النبي

(١) يُسمَّى حياء المرأة واحتشامها: خفَرًا.

ﷺ **«إيمان بالله، وجهاد في سبيله»**. فيقول أبو ذر: فأي الرقاب أفضل؟ فيقول النبي: **«أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها». فيقول أبو ذر: فإن لم أفعل: فيقول النبي: «تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق»**[1]

تأمل الأخيرة!

الناس صنفان: صنف بعمل وآخر بلا عمل؛ فأن تسدي لهذين الصنفين -اللذين لا وجود لغيرهما في الحياة- الخدمات والإعانات؛ هذا من أفضل الأعمال!

وتقديم الصانع على غير الصانع هنا دليل على أفضليَّة ذلك، يقول ابن حجر: «قال ابن المنير: وفي الحديث إشارة إلى أن إعانة الصانع أفضل من إعانة غير الصانع؛ لأن غير الصانع مظنَّة الإعانة فكل أحد يعينه غالبًا، بخلاف الصانع، فإنه لشهرته بصنعته يُغفَل عن إعانته، فهي من جنس الصدقة على

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٤٤/٣) (٢٥١٨)، ومسلم في «صحيحه» (٨٩/١) (٨٤).

المستور»[1]

إذن اجعل الجميع محطًّ اهتمامك، وعطائك، وكن أنت بائع (الخردوات) الذي تقف معهم في الوقت المناسب، واللحظة المهمة في حياتهم، ثم إذا انتهت خدمتك النبيلة، تولَّ إلى الظل، في صمت النبلاء..

الأب

مات أبي قبل أن أدخل المدرسة، لم أكن أعي -حينما مات- معنى الأب جيِّدًا، نعم أتذكر أن هناك شيئا من الحنان والعطف فقدته بموته، ولكن الأب ليس حنانًا وعطفًا فحسب.

لـمّا بدأت الدراسة لفت نظري أولئك الآباء الذين يحضرون إلى المدرسة للسؤال عن مستوى تحصيل أبنائهم، إذن الأب هو الشخص الذي يعنيه مستواك، ويهتم لذلك، ويسعى للنهوض بك!

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٥/١٥٠).

نعم قد يرزق الله اليتيم شخصًا يعوِّض شيئًا من معنى الأبوَّة في نفسه -كما كان يفعل أخي الكبير «عيسى» معنا- ولكن تظل الأبوّة نصًّا عظيما لا يمكن أن يفسّر معناه، ويشرح تفاصيله شخص غير الأب!

يكاد المعلِّم يعرف طلابه الأيتام دون أن يسألهم، هناك شرود في النظرات، شيء يشبه تلمُّس الأعمى لجدار في طريقه، كأنَّهم يتلمَّسون الحياة بحذر.

الأب يشبه آخر حجر في لعبة (الدومينو) التي رُصَّت بطريقة متتابعة، فإذا ما سقط ذلك الحجر تتابع الكثير من أحلامك بالسقوط! إلا أن يشاء الله.

فهو كقيس الذي قال عنه الشاعر العربي:

فما كان قيس هُلْكُه هلك واحد ... ولكنَّــه بنيــان قــوم تهــدَّما

بل بعض الآباء يتضعضع بموتهم أناس كثر:

لعمــرك مــا الرزيَّــة فقــد شــاة ... ولا جمــل يمــوت ولا بعــير

ولكــنَّ الرزيَّــة فقــد حــرٍّ ... يمــوت لموتــه خلــق كثــير

الأب يشبه بائع (الخردوات) الذي أنقذني وجوده بالقرب منّي،

لا تدرك أنت ما الذي كان سيحدث لولا وجوده في حياتك، لولا وقوفه بالقرب منك.

ما أكثر أولئك الناجحين الذين كان سيتحوَّل نجاحهم إلى إخفاقات، وإحباطات، وخيبات متوالية؛ لولا الله ثم مساعدة الأب وتشجيعه، أو أي شخص في مكان الأب بالقرب منهم.

قرِّر أن تكون أبًا جيِّدًا لأبنائك، حتى وإن كبروا، لا تستغن عنهم أبدًا، بل راقبهم من بعد، فإذا أوشك أحدهم على السقوط، فادفع إليه بكرسيٍّ ليقيه الارتطام على الأرض..

وبكى أيوب

لحظة الفقد من أصعب اللحظات على النفس، وفيها تكتشف كيف أن شخصًا ما كان يعني لك الكثير! مع أنَّك في أيام وجوده لم تكن تدرك ذلك، بعض الناس كالألوان، لا يمكن أن تعلم قيمتهم إلا لحظة اختفائهم، وتحوُّل الحياة من حولك إلى اللون الرمادي القاتم..

هناك معان تتلاشى مع تلاشي بعض الأشخاص!

هذه أم أيمن ـــرضي الله عنهاــ بعدما مات النبي ﷺ شعرت بنوع خاص من الفقد! فجعلت تبكي، فجعلوا يعزُّونها، فقالت: إني والله ما أبكي على رسول الله ﷺ ألا أكون أعلم أنه قد ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكني أبكي على خبر السماء انقطع

قال حمَّاد (راوي الحديث) خنقت العبرة أيُّوب حين بلغ هاهنا! (وأيوب شيخ حمَّاد)[1]

لقد بكت أم أيمن على عبق جبريل ــعليه السلامــ، وعلى آيات القرآن التي كانت تنزل فتنداح هالات الهداية تملأ أرجاء الكون.. لقد بكت على خبر السماء!

وموت الرسول ﷺ نثر رمادًا في أرجاء المدينة، فيخبرنا أنس ــرضي الله عنهــ أن كل شيء أظلم في المدينة بعد موته ــعليه السلامــ، وعثمان ــرضي الله عنهــ صار يُقاد، وعمر ــرضي الله عنهــ غشي عليه، وابن مسعود ــرضي الله عنهــ ينكت الأرض بالعصا ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس! كانوا يشعرون

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٢٢٠) (٨٤).

بالمكان الذي كان يملؤه النبي ﷺ في نفوسهم أيام حياته، ولكنَّهم بعد موته اكتشفوا أن المكان أكبر عمقًا، وأن الألم أشدُّ حرقة، وأن الفقد أفظع إيلامًا..

فنجان قهوة

يخبرني صاحبي عن شيخ كهل من قرابته، ماتت زوجته التي عاش معها عقودًا من الزمن، ورزقه الله منها الذريَّة، فكان هذا الشيخ الكبير يعيش بعد موت زوجته في بيت ابنه الأكبر، وقد كان هو وزوجته بارّين بذلك الشيخ، وذات صباح خرج الابن إلى العمل وفي الطريق تذكَّر شيئًا نسيه في البيت فعاد على عجل، صعد الدرج فإذا بالمفاجأة! أبوه جالس على درجة من الدرجات.. ويبكي! مؤثرة جدًا دموع الكبار في السن! رقَّ قلب الولد على والده، فاحتضنه، وأقامه من مكانه وأدخله البيت، ثم جلس بين يديه وسأله عن سبب بكائه، فقال الأب وهو يمسح دموعه: لقد اشتقت إلى أمِّكم ! كانت في مثل هذا الوقت تصنع قهوتي،

وتجلس معي لتحادثني! الآن صرتم تخرجون إلى أعمالكم وأبقى وحدي..

فقط خطر بباله فنجان القهوة وحديث الصباح فبكى.. فكيف لو خطر بباله كميَّة التضحيات، والأنس، وأيام الصفاء، ودفء الحياة   ماذا كان سيفعل؟

والداك، وإخوتك، وزوجتك، وأبناؤك   ومن حولك هؤلاء هم ألوان حياتك، وأُكسجين صباحاتك، وعطر زهورك املأ ثغورهم ابتسامًا، وأرواحهم سعادة، لأنَّ حياتك بهم جنَّة، وستبكي على درجة من درجات سلَّم البؤس ساعة فراق أحدهم.

كن مظلَّة

في الرابعِ الابتدائي كنت جالسًا على مقعد خرسانيّ بقرب بيتنا صباح يوم دراسي، منتظرًا ولد الجيران ليسايرني إلى المدرسة، فإذا بولد شقيّ يكبرني قليلاً يقف أمامي، ويرفع صوته عليَّ مستهترًا ساخرًا، لم أردَّ عليه بكلمة، فلمَّا رأى أنَّ أمامه قطعة

خرسانيَّة تجلس على قطعة خراسانيَّة أخرى فضَّل إكمال طريقه

في اليوم الثاني وفي نفس الوقت أقبل الولد، ولكن بملامح أخرى مغايرة تمامًا لملامح الأمس ، وسألني: هل أنت أخو «عبد الله»؟ قلت له: نعم! فإذا بعبارات السخرية التي بالأمس تتحوَّل إلى عبارات تلطُّف واعتذار! ولم يقف بعدها بالقرب منِّي لا ساخرًا ولا معتذرًا

عرفت بعدها أن المواقف السيئة التي ردَّها الله عنِّي بفضل أخي عبد الله وشجاعته على مستوى الحيِّ والمدرسة كثيرة جدًّا.

وعبد الله نفسه لا يدري عن خدماته التي كان يقدِّمها لي، ولكن لا شكَّ أن وجوده في حياتي كان إيجابيًّا من هذه الناحية، وغيرها من النواحي.

إذن: الأخ من الأشخاص الذين يبيعون (الخردوات) بالقرب منك، وتنصرف عنك بنظراتهم، أو بوجودهم؛ أشياءُ لا تتوقعها!

فلتغمره باحترامك، ولتشعر بالامتنان له..

وقد قيل: إن رجلاً نُعي له أبوه فترحَّم عليه، ثم نعي له ابنه فترحَّم عليه، ثم جاءت ثالثة الأثافي فنُعي له أخوه فقال: أخ

انكسر ظهري!

وكانت أمِّي تحدثني وأنا صغير بقصَّة معبرة، تقول القصة: إن طاغية حبس ثلاثة رجال هم زوج وابن وأخ إحدى النساء العاقلات، فأتت تشفع لهم عند الطاغية وتخبره أنَّه ليس لها في هذه الحياة إلا هؤلاء الثلاثة، فسمح لها أن تختار واحدًا منهم ليعفو عنه، فقالت بعد تأمُّل: الزوج موجود، والابن مولود، والأخ ليس له وجود

وقد أحسن الشاعر حين قال:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

ما أجمل أن تقول شكرًا لهؤلاء الذين علمت أنهم جعلوا حياتك جميلة..

وأجمل من ذلك أن تكون شاكرًا لأولئك الذين لم تعلم ما قدَّموه لك من خدمات، قلها على شكل دعوة، أو شعور بالرضا على هذه الحياة المليئة بهؤلاء النبلاء.

بل وما أجمل أن تقف في طابور هؤلاء النبلاء، وتغدو نبيلاً مثلهم، تقدِّم خدماتك لكل محتاج، وترضى أن تكون المظلَّة التي

تحجب عمَّن حولك أشعة الشمس الحارقة، وقطرات المطر الباردة، وكُرَات البَرَد المؤذية.

الجسر

الحياة في كثير من فصولها تشبه المشي في منحنيات جبل وعر، وبعض مصاعب الحياة شبيهة بالهاوية التي تكون بين ضفتين في تلك المنحنيات الجبلية، لا بد أن يضحِّي فرد ما بأن يحوِّل جسده إلى جسر ليمرَّ من عليه بقيَّة أفراد المجموعة.

وفي هذا المعنى يعجبني كثيرًا قول الشاعر البليغ:

تقضي الرجولة أن نمدَّ جسومنا   جسرًا فقل لصحابنا أن يعبروا

صورة مليئة بالنخوة والشهامة

ها قد شعرتَ بأهميَّة أناس كثر في حياتك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما أهميَّتك أنت لمن حولك؟

حاول أن تبيع (الخردوات) بالقرب من أبنائك، أن تمسك المظلَّة للعابرين تحت الشمس، أن تكون الجسر لأولئك الذين

هددتهم منحنيات الحياة.. كن كابن المبارك الذي يستيقظ قبيل الفجر ويضع مساعداته عند بيوت الفقراء دون أن يعلموا به.. ومثل أبي بكر الصديق الذي يأتي في خفية إلى بيت عجوز ويطهو لها طعامها.. قدِّم أشياء جميلة لمن حولك.. دعهم يبكون على فقدك، ويذكرونك بخير..

نظرية ثم قانون

هناك كلمتان في القرآن الكريم تلخِّصان نظرية بائع (الخردوات) هذه، وتحوِّلانها إلى قانون ضخم من قوانين الحياة الطيبة ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ أحب دائمًا الاستشهاد بهاتين الكلمتين في سياقات كثيرة، أعجبني في هذا الأمر الإلهي إطلاق هذا الخير وعدم تقييده؛ افعل كل خير تستطيعه، كن الشمعة التي لا يتخيَّل من يعيش في ضوئها كيف ستكون حياته لو انطفأت انثر الخير ذات اليمين وذات الشمال.

ابتسم، مدَّ يدك لكبير لا يمكنه السير باطمئنان، أفسح لمريد

للجلوس، دافع عن غائب، تصدَّق، تحدَّث عن قضيَّة فقير أو مسكين أو مريض في مجمع من الناس لعلَّ يدًا مستطيعة ترفع عنه شيئًا من بؤسه، افعل الخير

توقيع

ما أرحم الله، حين ملأ حياتنا ببائعي الخردوات، وما أجملنا حين نبيع الخردوات بالقرب ممن نحبّهم !

الكلمة النبيلة

الحياة تحيّي أولئك الذين يسعون إلى إعادة تأهيل الحياة، الذين جعلوا مهمتهم استصلاح تربة النفوس، وغرس الورود، ونشر ثقافة الابتسام..

الكلمة النبيلة

في بيتنا عندما كنّا صغارًا، كانت تبدر منّا (شقاوات) بريئة، كأنْ نكسِرَ إناءً، أو نعبثَ في غرفة، أو نصدر ضوضاء، فتأتي أيدي الزجر والعقاب من كل جانب، فكان أخي «موسى» يدافع عنِّي دائمًا بكلمة كنت أشعر معها ببرد وسلام، وكانت تخفِّفُ أحيانًا العقاب، وتزيله بالكليَّة أحيانًا أُخرى، فكلِمَته كانت مسموعة، لأنَّه أكبر سنًّا، وأكثر حِكمة. كان يقول إذا ما وُجِّهَتْ أصابع الاتهام صوبي: (مهو بالعاني)! أي لم يكن «عليٌّ» يعني ويقصد ذلك الخطأ الذي بدر منه!

كانت كلمته تلك تأتي في وقتها، فتوقِف عصا كانت ستلسع ظهري، أو تردُّ تأنيبًا كان سينطلق صوبي!

إنَّها الكلمة النبيلة التي تأتي في الوقت المناسب، فتنقذ بريئًا، أو تخفف من عقاب مذنب نادم، أو ترد حقًّا، أو تصنع جمالاً في الحياة..

خيار المناورة

كُثُر أولئك الذين يمدون إخوانهم في الغيِّ ثم لا يُقْصِرون، الحياة مليئة بهم، يأتي أحدَهم صاحبُه وفي رأسه فكرة سيئة، فيجد منه تأييدًا، وتثبيتًا له على الباطل، فإذا ما وقع فأس الموقف في الرأس، ذاب كما يذوب الملح في الماء!

إني لأفـتح عيـني حـين أفتحهـا   على كثير ولكن لا أرى أحدًا

ولكن القلة والندرة هم من يقف على النقيض من هؤلاء، وأعني بهم أولئك الذين يخففون من غُلواء[1] فكرة مبالغٍ فيها، ويبيِّنون عوار رأي غالٍ، ويقترحون اقتراحات تُثيب العقول إلى الرشد.

الحياة تحيِّي أولئك الذين يسعون إلى إعادة تأهيل الحياة، الذين جعلوا مهمتهم استصلاح تربة النفوس، وغرس الورود، ونشر ثقافة الابتسام.

إنَّ مساحة «ارتكاب أخف المفسدتين بدفع أثقلهما» لتتيح

---

(١) غلواء الأمر: شدّته.

المجال لأناس يملكون قدرًا كبيرًا من الإنسانية، ليتحرَّكوا وفق إنسانيَّتهم، ولكن تعقيدات الحياة في كثير من الظروف ترفض أن يمارس هؤلاء النبلاء كامل صلاحيَّاتهم، فيجدون أنفسهم بين خيارين: خيار المناورة، والرضا بالممكن، والتحرُّك وفق المتاح، وخيار الانسحاب.. فيفضِّلون المناورة؛ لأجل أن تبقى الحياة محتفظة بشيء من عبقها؛ لأنهم لو قرروا -لا سمح الله- أن ينسحبوا، لتحوَّلت الحياة بعدهم إلى أدخنة خانقة ولا شك!

أسطورة الأصنام

لو أجْمَعَتْ آراء من حولك على ظلم شخص، وأنت بين خيارين: إما أن تنسحب وتتركهم وظلمهم؛ لأنَّك عاجز تمامًا عن دفع ذلك المخطط الدنيء، وإما أن تناور! وأن تطرح اقتراحات أخرى أخف ضررًا؟ وإن كانت غير ناصعة البياض، ولكنها على الأقل ليست بقاتمة السواد!

فتغيِّر خيار القتل إلى خيار السجن!

وتجعل الفصل المحتَّم من العمل يتحوَّل إلى إنذار بالفصل!

وتبدِّل الطلاق الذي أوشك على بتٍّ[1] علاقة مقدَّسة إلى الإبقاء على العلاقة مع التنازل عن بعض الحقوق!

إنَّك إن اخترت هذه المناورة ستكون أنبل ما تكون، إنَّك تفعل كما يفعل الأنبياء الذين يتركون قومهم على شيء من الباطل، لا رضا بذلك الباطل، ولكن لأن وقت إزالته لم يحن، أو لأن إزالة ذلك الباطل في ذلك الوقت سيؤدي إلى باطل أشد.

منظر الأصنام حول الكعبة لم يكن جميلاً عند رجل جاء ليُنهي أسطورة هذه الأصنام ﷺ

وبقاء أناس مغموص عليهم في النفاق، يسيرون باطمئنان في سكك المدينة، لم يكن أمرًا تهنأ معه عين النبي ﷺ..

وبقاء الكعبة على غير قواعد إبراهيم ـعليه السلامـ الذي بناها أول مرة، لم يكن أمرًا مريحًا للنبي ﷺ

ولكن كل ذلك يحدث ويبقى، لأن الأهم قادم، ويحتاج إلى

(١) البتّ القطع، ومن أسماء الطلاق الذي لا رجعة فيه طلاق البتّة، يقال: طلّق الرجل زوجته البتّة.

لقه أولوليات، والرضا بالممكن ـ مؤقّتاً ـ، ومصابرة، حتى يأتي الوقت المناسب.

إذن، ليس شرطًا أن يتمَّ كل ما تراه حقًّا في (أقرب) وقت، بل حاول إتمامه في (أنسب) وقت! حاول أن تخفف من الشرور التي حولك قدر الإمكان، طبِّق (بعض) مبادئك، حتى يأتي الوقت الذي تستطيع أن تطبِّق فيه (كل) تلك المبادئ، فالبعض طريق الكل، وكلمة نبيلة في وقت الشدة، تساوي كلمات مُلِئتْ نبلاً تقولها وقت السعة.

ألقوه في غيابة الجب

كن صاحب الكلمة الأكثر نبلاً، والاقتراح الأعمق نظرةً، والتوقيع الأبقى أثرًا، لا تترك ناقصي المبادئ يعبثون بمبادئك، تكلَّم وخفف ما استطعت من البؤس الذي تكتظ به الحياة، وغلِّف كلامك بالحكمة البالغة، وزيِّن أحرفك بالصدق والإحساس النبيل.

اصرخ بـ ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ابحث عن الضعفاء وأخبرهم أن عليهم أن يخرجوا..

اقتدِ بأخي يوسف ـ عليه السلام ـ الذي كان ضمن المجموعة المخطِّطة للتخلُّص من يوسف، ولكنَّه لما رأى شرَّ إخوته قد استطار، وأنَّ أمرهم قد توجَّه، علم أن أي اقتراح يقلع فكرتهم من جذورها عديم الفائدة، فجاء باقتراح لا يقلع وإنما يغيِّر مسار المخطط، فقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ فمهما كانت فكرة ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ بشعة، إلا أنَّها أقل بشاعة بكثير من فكرة ﴿ٱقْتُلُوا يُوسُفَ﴾!

ومن المؤكد أن كلمة (غَيابة) هنا لها مقصد، وإلا فالإلقاء في الجبِّ سيُفضي به إلى غيابته دون الحاجة إلى ذكر الغيابة، ولكنَّها قد تشير إلى أنه أراد أن يرسم صورة هذا الإلقاء بأبشع ما يمكن، فيكون بديلاً جيدًا عن القتل، عند نفوس صارت ترى القتل أمرًا جيِّدًا، وألا يكون البَون[1] بينه وبين القتل شاسعًا فينفروا منه، فاستخدم اللغة، حتى يدعم بها موقفه المحبِّط والمثبِّط لهم عن إرادتهم

(١) كان البون شاسعًا، أي كان الفرق والمسافة الفاصلة كبيرة.

الشريرة..

فنتج عن ذلك أن وافقوا على مقترح الإلقاء في الجبِّ، وتمَّ الإلقاء ثم هيَّأ الله ليوسف من يأتي ويستنقذه من البئر، ثم كان ما كان..

إن هذا الفعل الذي يقلل من حدَّة الشرِّ سرُّ استمرار الخير في الحياة، وإن الذين يجدون الشر قد استطار، فيأتون بكلمة أو اقتراح أو تحوير يسير، يقضي الله به خيرًا عميمًا، ويغلق به باب شرٍّ؛ هم من أولياء الله.

والرسالة تقول: لا تستنكف عن كلمة قد يستنقذ الله بها حقا كاد يُطمس، أو خيرًا كاد يضيع، أو بريئًا أوشك اجتماع مغلق أن يغلق عليه باب الحياة الكريمة!

ابنِ جدارًا كاد ينقضُّ، حتى وإن لم تقبض أجر ذلك البناء، يكفي أن تحرس بذلك الفعل النبيل كنزًا لغلامين يتيمين في المدينة.

من أقصى المدينة

وإضافة كلمة «غيابة» في قصَّة استنقاذ يوسف من القتل،

تذكِّرنا بإضافة كلمة «وإن يك كاذبًا» في قصة استنقاذ موسى من القتل!

فهذا مؤمن آل فرعون ـرضي الله عنهـ جاء يناضل في موسى ـعليه السلامـ فقال في سياق مقارعته خصوم الدعوة بالحجج «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم وإن يك كاذبًا فعليه كذبه وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم»

يقول الشيخ ابن عاشور في التعليق على ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا﴾:

«وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ رجوع إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى؛ ليكون كلامه مشتملا على احتمالي تصديق وتكذيب، يتداولهما في كلامه، فلا يؤخذ عليه أنه مصدق لموسى، بل يخيل إليهم أنه في حالة نظر وتأمل؛ ليسوق فرعون وملأه إلى أدلة صدق موسى بوجه لا يثير نفورهم... وقدَّم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادة في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى فأراد أن يَظهر في مظهر المهتم بأمر قومه

ابتداء»[1]

وهكذا هم النبلاء، يحاربون بالكلمة النبيلة، ويضيفون ويحذفون حتى تغدو الحياة بهم أجمل

الصمت الحكيم

رجاء بن حيوة عالم جليل، وهو شخصيَّة تاريخية كانت مقرَّبة من خلفاء بني أميَّة، تحضر مجالسهم، وتشهد حكمهم، وتُستشار وتقترِح، وقد كان صاحب كلمة نبيلة، تأتي في الوقت المناسب، فيغيث الله بها العباد والبلاد، ويفعل الله بها ما يشاء من الخير!

ومن خبره أنَّه لما أحسَّ الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بدنوِّ أجله، استشاره فيمن يوصي بالخلافة من بعده، وما زال رجاء يداري، ويصرفه عن بعض الأسماء التي ذكرها، وهي -أي الأسماء المقترحة- في نظر رجاء دون مسؤوليَّة الخلافة، ثم إن سليمان جاء على ذِكر أمير صالح، لم يكن أخًا له أو ابنًا، مع أن سنَّة الخلافة

(١) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٤/١٣٠).

الأمويَّة هي التوريث لأخ أو لابن.. فأشار رجاء على سليمان بأن يوصي لذلك الأمير بالخلافة، فكانت هذه الكلمة النبيلة، وهذه المشورة الموفَّقة، سببًا في أن تَعطِّرَ تاريخنا الإسلامي العريق بحضور خليفة عُدَّ لعدله وديانته خامس الخلفاء الراشدين، وأعني به «عمر بن عبد العزيز» رحمه الله تعالى.. الذي لولا إرادة الله، ثم كلمة رجاء بن حيوة -رحمه الله رحمة واسعة- لما علمنا بوجوده، فضلاً عن أن يكون خليفة، يحكم العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، بالقسط والعدل.

فكم لهذه الكلمة التي قيلت في مكانها ووقتها المناسبين من فضائل، أن جاءت لنا بهذا الخليفة الذي صنع في سنتين، ما لم يصنعه الخلفاء والسلاطين في الحقب المتطاولة، عبر الآماد المتباعدة!

ولا تعني الكلمة النبيلة أن نظل نلقي الاقتراحات، ونُشير دون أن نُستشار، ونأمر وننهى، بل تعني أن ندَّخر لكلامنا من صمتنا! فإن كل صمت تصمته يضيف لكلامك الذي لم تتكلمه بَعدُ وهجًا، ورونقًا، وقوّة، فأكثِر من الصمت الحكيم، لتنطق بالقول الحكيم، فتُسمَع إن قلتَ، وتُطاعَ إن أمَرْتَ، فليس صاحب الكلمة

المناسبة بالمِهذار، ولا بالثرثار

تغيُّر الميزان

أعجبتني قصَّة قرأتها في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تقول: إن جريرًا بلغه موت الفرزدق، وقد كان بينهما ما هو معروف من الهجاء، والمناقضات الشهيرة، فلما جاء جريرًا ذلك الخبرُ، وكان بحضرة الأمير المهاجر بن عبد الله، قال فيه هاجيًا:

مات الفرزدقُ بعدما جدَّعتُه ليت الفرزدقَ كان عاش قليلا

فكان الوقت وقت الكلمة النبيلة، كيف يرضى المهاجر بن عبد الله لجرير أن يهجو ميْتًا؟ هذا لا يليق بالميْت ـ رحمه الله ـ ولا بالحيّ.. كان بوسع المهاجر أن يسكت كما يسكت مئات الناس عندما يسمعون كلامًا كهذا، ولكنَّه أبى ذلك فقال بحدَّةٍ محمودة: بئس -لعمرُ الله- ما قلت في ابن عمِّك! أتهجو ميتًا؟ أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرها. فقال جرير: إن رأى الأمير أن يكتمها عليَّ فإنَّها سوءة، ثم قال:

فلا وَضَعَتْ بعد الفرزدق حاملٌ ... ولا ذاتُ بعل من نفاسٍ تعلّتِ

هو الوافدُ الميمون والراتقُ الثأى ... إذا النعلُ يومًا بالعشيرةِ زلّتِ

تغيَّر الميزان تمامًا، وتحوَّل الهجاء إلى المديح، وعادت الحقوق المهدرة لأجل نعرة مزعومة.. كل ذلك بسبب الكلمة النبيلة.

تنفس النبل

دافع عن الحق الذي لم تخلق السماوات والأرض إلا له وبه.. اجعل ذلك عادتك، عادة لا تحتاج أن تُعلن موعد بدئك بها، إنها مثل أنفاسك تأتي عفوًا دون إدراك كامل منك..

من أعظم النبل ذلك الذي تفعله لا لأنَّه أمرٌ جميل، بل لأنَّك تشعر بقبح نفسك لو لم تفعله! إنَّه ذلك الذي تحسُّ بضرورة فعله، وأنَّك تمارس ذنبًا ما إن لم تفعله..

إذا صرت تشعر بقبح هجرانك للأعمال النبيلة، فإنَّك ولو لم تنزل فيك آية لتخبرنا عن تفاصيل نبلك، فإنَّك قد صرت آية، تخبِّر الحياة عن تفاصيلها الجميلة..

توقيع

في كل فصل من فصول حياتك، هناك موقف يصلح أن تقول فيه كلمة نبيلة، وهناك فكرة تتدثر بحكمة مزعومة تقول لك: اصمت.. عاند تلك الفكرة، وتكلّم بنبل

الطيبون

مشكلتنا أننا نعاني أزمة جغرافيّة مع ذواتنا، فنعتقد أننا نحتل مساحة أكبر مما نحن عليه بالفعل، ولو حرصنا على معرفة حدودنا الجغرافيّة بدقّة، لمزّقنا خارطة نرجسيّتنا..

الطيبون

كنت سعيدًا بالبيت الجديد الذي سكنته، وسعيدًا أيضًا بموقعه الشبيه بالريف، وسعيدًا أيضًا وأيضًا بالجيران الذين ظننت أنِّي سأعقد معهم صداقات مميَّزة!

وحصلَتْ المفاجأة، فبعد سكني بشهر تقريبًا، سافرتُ أسبوعًا، ولما عدت من سفري وجدتُ قمامةَ جاري عند بيتي! أحسست بشعور سلبي، ولكنِّي حاصرته مباشرة، فقلت في نفسي: لعلَّ أحد أبناء جاري لم يعلم أنَّ هناك من سكن في هذا البيت، لعلَّها كانت محض صدفة، وخطأ غير مقصود!

بعد أيام خرجت من بيتي، وإذ بجاري واقف عند باب بيته، والمسافة التي تفصل بيتي عن بيته قرابة العشرين مترًا، فاهتبلت[1] الفرصة، لتكون بداية تعرّفي عليه، ورفعت صوتي مسلِّمًا، وقد شحنت صوتي بطاقة الفرح، حتى يعلم كميَّة مشاعري الإيجابيَّة

(١) اهتبلت الفرصة: اغتنمتها.

تجاهه.. فلم يردَّ على سلامي!! لا أدري الآن هل كررت السلام، أم لا؟ ولكنِّي أذكر أني شعرت برماد ما يُنثر على حلمي الجميل.. ما هذا الجار الذي يريد أن يعبث بحلم متواضع، بل يريد أن يُشعرني أني شخص مكروه من أوَّل الأيام!

بعد أسبوع تقريبًا عدت من عملي في منتصف العصر، وإذا به أمامي، وقد فتح مقدِّمة سيَّارته، وهو عاكف على إصلاح شيء فيها، تذكَّرت القمامة، وتذكرت أنَّه لم يردَّ على سلامي، تذكرت ذلك وشعرت بشيء يقول لي: «اتركه فلا خير فيه»! ولكنَّ شيئًا آخر في داخلي حثَّني لعمل العكس؛ فأحببت أن أكون شخصًا يساعد الناس ليتغلَّبوا على شياطينهم، فأوقفت سيارتي، ثم ذهبت إليه لأعرض عليه خدماتي، ولما لم يعد بيني وبينه إلا مترٌ واحدٌ سلمت عليه بصوت مرتفع، حتى أجعل صوتي يغلب صوتَ محرِّك سيَّارته، ولكن يبدو أن صوتي لم يصل إليه، فلم أسمع ردًّا للسلام، ولا حركة تشي[1] بأنَّه ردَّ السلام هامسًا، أعدت السلام بصوت أكثر علوًّا! لم يجبني قط! شعرت بالدماء وهي تصعد صوب منطقة

---

(١) تدل.

الغضب في رأسي.. هدَّأتُ من نفسي، واقتربت أكثر وسألته هل من خدمة يمكنني أن أقدمها له، ولعلِّي قد لمست بيدي كتفه هذه المرَّة، فرفع رأسه ونظر إليَّ.. كنت مستعدًّا لأي ردَّة فعل، فإذا بابتسامة مشرقة تظهر على وجهه! وبسلام حارٍّ يغمرني به! ثم أشار إلى أذنيه وفمه، وأخبرني (بالإشارة) أنَّه لا يسمع ولا يتكلَّم!

شعرت بفتور غريب، وببرود أغرب.. وبحزن على كميَّات سوء الظن التي أتحت لها المجال أن تستعمر قلبي تلك الأيام..

لقد كان من أطيب الناس الذين عرفتهم، ولكنَّه لم يكن يسمع شيئًا، أو يستطيع أن ينطق بكلمة.. هذا كل ما في الأمر!

أعلم أن كل شيء حدث لي مع جاري كان يدفعني إلى اعتقاد سوء أخلاقه، ولكن ما الأمر الملحُّ الذي يجبرني على سرعة الحكم؟ هل أنا في مسابقة دوليَّة يجب عليَّ أن أسارع بالانتهاء من تسليم ورقة الإجابة فيها؟

أشعر أننا بحاجة إلى فصل التيار الكهربائي عن الخلايا التي تتعلَّق بالحكم السلبي على الآخرين، دعها تعيش في الظلام، وتهدأ قليلاً، يمكنك أن تجعل هذه الأحكام قرارات مؤجلة، أخِّرها شهرًا

أو اثنين، في الوقت متسع لأن تزيد من خانة الكره داخلك..

نحن نحتاج إلى حدائق الحب في دواخلنا، أكثر من حاجاتنا إلى مستنقعات الكره!

ليست العَجَلة مطلبًا في مثل هذه الأمور، تأخَّر قليلاً في دفع فاتورة المواقف السلبية، ماطلْ المشاعر التي تطالبك بسرعة السداد، حتى لا تضطر أن تضاعف قيمة الفاتورة من أعصابك، وسعادتك، وابتسامتك.

تشوّه

عن أبي هريرة ــرضي الله عنهــ قال: قال النبي ﷺ: **«إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»**[١]

للنفس أحاديث عدة: منها الحديث المنامي، وحديث الفأل، وحديث الشؤم، وحديث الظن هذه أمور تتحدَّث بها النفس

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٩/٧) (٥١٤٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٩٨٥/٤) (٢٥٦٣).

مع ذاتها، وبعضها يقع وبعضها لا يقع، ولكن سوء الظن هو النوع الذي سجَّل أكثر حالات عدم الوقوع، لذلك فهو «أكذب الحديث»!

ونحن نشهد ذلك من أنفسنا! فكم قد ظننا السوء، وأتت المؤشرات لتؤكد ذلك الظن، ثم -بعد أن نبني تصوُّراتنا، ونهدر طاقاتنا، ونشوِّه جمال أرواحنا- نكتشف أنَّ تلك أحاديث نفس كاذبة، وأن كل ما توهَّمناه خيالات كان الشيطان يزجي بها وقته في نفوسنا.

إذن لنغلق باب هذا الحديث الكاذب، ولنتعامل مع الناس وفق ما عرفناه عنهم من الطيبة والسماحة، لأن الظاهر بعض المرات لا يعكس شعورًا تجاهنا، وإنَّما يعكس شعورًا داخليًّا لدى الآخر تجاه مشكلة قيَّدت شفتيه عن الابتسامة، وملامحه عن الهدوء.. وجعلت كلماته أكثر حدَّة، وتصرُّفاته أكثر اندفاعًا..

قد يكون هذا الذي ظننت به السوء بحاجة إلى أن تمدَّ يدك إليه، أكثر من أن تكفَّها عنه..

غابة نخيل

الناس أطيب مما تظن، وأجمل مما تتوقع، وقلوبهم مليئة بطيور الحب التي تغرِّد صباح مساء، بأجمل الألحان وأعذبها، فلماذا تظن فيهم أسوأ الظنون؟

لماذا تظن أنَّك الشخص الأهم في هذا الكون، الشخص الذي تدور حوله المؤامرات، وتحاك ضدَّه الخطط، وتلفُّ من حوله الأحابيل؟ أنت يا عزيزي أقل في أعين الناس مما تظن، فليس لديهم وقت فائض حتى يملؤوه بكرهك، أو بعقد جلسات سريَّة للإطاحة بعرشك..

مشكلتنا أننا -في كثير من الحالات- نعاني أزمة جغرافيَّة مع ذواتنا، فنعتقد أننا نحتل مساحة أكبر مما نحن عليه بالفعل، ولو حرَصنا على معرفة حدودنا الجغرافيَّة بدقَّة، لمزَّقنا خارطة نرجسيَّتنا..

كثير من سوء الظن ينشأ من عقدة داخليَّة، أقنعتنا هذه العقدة أننا أشخاص غير عاديين، ونستحق أن يحسدنا الآخرون على مواهبنا، وأن أصواتنا مليئة بالشجن، وأوجهنا تتقاطر وسامة، وأعيننا غابات نخيل ساعة السحر!

لنهدِّئ قليلاً من غلواء هذه النزعة النرجسيَّة، فليس وراء الأكمة إلا الريح الصرُّ، وشيء من الهشيم المتناثر..

بحر الظنون

كانت هناك دلائل (وهميَّة) جعلتني أشك في أحدهم أنَّه ينصب لي فخًّا، فعشت في قلق، وصارت كلماته العفويَّة تتحوَّل إلى رموز غير بريئة، وبعد أسابيع من (وَجَع الرأس) جلست مع نفسي وسألتها: هل في نصوص الوحيين دواء لهذا القلق، وحل لهذه المشكلة؟ حتى أرتاح؟

فإذا بي أتوصَّل إلى ثلاثة نصوص تُنهي هذه الأزمة الوهميَّة:

النص الأول آية من كتاب الله تقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فليس توجسي بمقدِّم ولا مؤخِّر شيئًا قد كتبه الله، فلماذا أُتعب نفسي في أمر قد كتبه الله عليَّ منذ ملايين السنين؟ هنا شعرت براحة كبيرة جدًّا..

ولكن بقي في النفس شعور كئيب تجاه ذلك الشخص.. فأنا

وإن وثقت بالله، وأنه لن يصيبني إلا ما كتب الله لي، إلا أن رؤية شخص تظن به السوء وحدها مجلبة للغم والنكد!

فإذا بآية أخرى تقول لي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ إذن ما دامت الأمورُ أمورَ شكوك وظنون في أخ مسلم ظاهره الصلاح، فهي إثم، والإثم لن يفضي إلى خير أبدًا.. لحظتها بدَّدت الشكوك وعاملته وفق ظاهره، وصرت أسمع كلماته على أنها كلمات، لا إبر مخدِّرة، تخفي خلفها خططًا وأحابيل..

بقي في نفسي حَسِيكة تقول لي: تخيَّل لو تحققت تلك الظنون! ولم تستعدَّ لها الاستعداد المطلوب؟ عندها ظهرت لي النصوص التي تأمرني بالتفاؤل **«كان يعجبه الفأل»** وبإحسان الظن بالله **«أنا عند ظن عبدي بي»**[(١)]، لحظتها ابتسم شيء داخلي، ورأيت في وجه ذلك الشخص جمالاً وبراءة لم أكن أراها في الأسابيع الماضية، وتلاشى القلق الذي نغَّص جمال تلك الأيام.

ومضت الأشهر، ثم تفرَّقنا.. ولم يأتني منه إلا كل خير..

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٩/١٢١) (٧٤٠٥)، ومسلم في «صحيحه» (٤/٢٠٦١) (٢٦٧٥).

وعلمت أن الخير كل الخير موجود في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة..

وأن كل ضيق وقلق، وهم وكرب، موجود في العمل بضدهما..

كان طيِّبًا ودودًا، أقنعتني وساوس شيطانيَّة أني أستحق أن يلغي أحدهم ضميره من أجلي.. أن يغيِّر بوصلة اهتمامه حتى يطيح بي واكتشفت أن ذلك القلق الذي عيشتني فيه ظنون السوء، أسوأ من أي أمر قد يحدث، وأخطر من كل توقُّع سلبي قد يكون..

توقيع

لا تبع راحة الظن الحسن، بقلق الظنون السيئة..

الزمن الشهم

طرقت الباب، وأنا لم أطرق بابا في حياتي لأجل أن آكل.. فكانت طرقات متخاذلة، طرقات ترجو الباب ألا يوصل لمن هم خلفه شكل الوهن الذي تنطوي عليه نفس صاحبها.. طرقات ترجو من خلف الباب ألّا يفتحه!

الزمن الشهم

من السهل أن تكون صفتك المميِّزة لك عن غيرك: الضحك والتبسُّط، وقدرتك على الترفيه عن المجموعة التي تنتمي إليها.

من السهل أيضًا أن تُبهر مجموعتك بمعلومات معيَّنة حول قضيَّة أو أمر يهمُّهم أن يعرفوا عنه أشياءَ تنقصهم.

هاتان الصفتان تصنعان مجلسًا جميلاً مليئًا بالأُنْس، وغالبيَّة من يتَّصف بهاتين الصفتين يكون محبوبًا، مرغوبًا في الجلوس معه.

ولكنَّ الحياة ليست مجلس سمر عابر، أو جلسة أنس جميلة، الحياة ذات تفاصيل أكثر تعقيدًا، وهي مليئة بالطرق ذات الانحناءات الشديدة، ومكتظة بالغرائب، ومترعة بالمفاجآت!

وعلى هذا فهناك صفة نرجو أن يتحلَّى بها من اخترناه ليكون صديقنا في رحلة الحياة الصعبة، هي -ولا شكَّ- أكثر أهمِّيَّة من القدرة على الإضحاك، أو الامتاع!

الصمت النبيل

هناك نوع فريد من البشر، يعجب الواحد منهم أن يجلس في زوايا المجالس، وأن يعيش في ظل الحياة، الاسترسال في الحديث هو أصعب أمر يمكنه القيام به، لا يتقن مهمَّة جذب الأنظار إليه في مجامع الناس، جوَّالك شبه خال من رسائله التي تهمس بأنْ: صباحك مشرق، ومساؤك جميل.. إذا ذُكر اسمه في حديث ما، احتاج المتكلِّم أن يضيف إلى اسمه صفات عديدة حتى يعرفه المستمع، إذ إن اسمه ليس بالاسم الرنَّان الذي كسب قدرًا من الأضواء في مجتمعه ومجالسه..

ومع ذلك فإنَّك وقت الأزمات، وعندما تدهمك كربة ما، فإن جميع الأسماء الرنَّانة تتلاشى من ذاكرتك، ولا يطفو على السطح إلا اسمه غير الرنَّان! وعندما يحاصرك ظرف ما، أو حاجة ملحَّة، فإنَّ قائمة الاتصال تتجاهل أصحاب الأنس، ولا تُظهِرُ لك غيرَه! ولمَّا تحتاج موعدًا في مستشفى، أو إنجاز مهمَّة في إدارة، أو إيصال شيء ضروري إلى شخص بعيد عنك، فإنَّك تغض الطرف

عن أصحاب الألقاب اللامعة، وتتوجَّه ببصرك تلقاء هذا الذي لا لقب يسبق اسمه الباهت جدًّا!

هذه بعض صفات هذا الشخص الذي يشبه النسيم، لا تكاد تشعر به، إلا أنَّك بدونه تحسُّ باختناق غريب..

إنَّه الرجل الشهم!

الذي إن أخبرته أن إطار سيَّارتك معطوب، فإنَّه لا يكثر من النصائح حول ضرورة تفقُّد الإطارات، والانتباه لتاريخها وتخزينها قبل الشراء، وإنَّما يسرع بالإتيان لينهي أزمتك الطارئة، وبطريقة تشعرك أنَّه لا يريد منك حتى كلمة «شكرًا» هذه الكلمة المجانيَّة..

إنه الصاحب الذي إن علم أنَّك وصلت إلى المطار في ساعة متأخرة من الليل فإنَّه يؤخر موعد نومه حتى يأتي ويوصلك إلى بيتك، ويشيِّعك بابتسامة رقيقة، ثم يعود إلى بيته بهدوء، وفي ظنِّه أنَّه لم يفعل شيئًا ذا بال..

إنَّه الذي إن علم بضائقتك الماليَّة سارع إلى إنهائها، وهو يعتقد أنَّه يؤدِّي واجبًا عليه، لا خدمة لك..

والسؤال يقول: أين هؤلاء؟

أين اختفوا؟

لماذا قل منسوبهم في الحياة؟ وكيف ألغينا مواصفاتهم من قائمة خياراتنا؟ ما هي الجائحة التي سبَّبت انقراضهم؟ حتى تمرَّ بك الظروف والأحوال ولا تجد طيفًا لأحدهم؟

لقد باتوا عملة نادرة، وصرت تعيش السنة والسنتين والأكثر دون أن تلمح لهم طيفًا! فإذا ما جمعتك ظروف معيَّنة بأحدهم، فإنَّك تشعر أنَّ شيئًا ما يخرج من عينيك تجاهه، يشبه العناق، والبكاء على أعتاب مرحلة انتهت!

وأنا سعيد جدًّا أنَّ زمنًا من الأزمنة غريبا، وحقبة في الحقب نادرة قد جمعتني بأناس كانوا يتَّصفون (جميعًا) بصفة الشهامة! ولا تلمح شخصًا إلا وعليه من الشهامة وشم ظاهر!

إنَّه زمن الشهامة يا صاحبي..

كانوا إخوة في ذلك الزمن الجميل.. يحب بعضهم بعضًا لأجل الصلاة، ولأجل ذكر الله، ولأجل قراءة القرآن، ولأجل أشياء عظيمة اعتقدوها مبادئ، وآمنوا بها مُثُلاً.. وكانت الشهامة، والنجدة، وإغاثة الملهوف من بين تلك المبادئ والمثل! إنَّهم لم

يضعوا الشهامة في خانة السِّمات الشخصيَّة التي يتحلى بها بعضهم دون بعض، بل كانت شرطًا من شروط أن تكون رجلاً شرطًا لا يُقرأ في بنود التحاق، وإنَّما يُتلى في آيات كتاب، ويُبصَر في سيرة نبي ..

كانوا يعتقدون الشهامة والنخوة والمروءة دينًا يمزجونه بأيامهم ولياليهم.. وكانوا يتقربون إلى الله بتفريج همِّ صديق، أو إغاثة ملهوف، أو حضور واجب عزاء، أو سفر لإدخال السعادة على قلب صاحب

والشهامة كلمة كبيرة جدًّا يدخل تحتها عدد من الصفات التي تفضي بمجموعها إلى معاني النخوة والشهامة والرجولة..

وها أنا ذا أرى أشجار النخوة الباسقة، وأمشي تحت ظلالها.. وكلما وقع شيء من الظل البارد على جسمي المنهك، رأيت صورًا قديمة، وسمعت أحاديث غابرة، وهدَّتني ذكريات تستدر الدمع السخين!

ثم بكى..

من المعاني الجزئية للشهامة والتي لم نعد نراها في دهاليز الحياة اليوميَّة كما كانت تظهر في ذلك الزمن، معنى «الفزعة» الماديَّة!

أن يبذل لك صاحبك من جيبه عندما يرى على وجهك ظلال الحاجة، أو علامات ضيق ذات اليد، أو حتى يظن أنَّك في مرحلة تتطلَّب شيئًا من المال؛ كأن تكون حديث عهدٍ بالزواج مثلا..

قبل خمسة عشر عاما تقريبًا سافر صاحبنا إلى جدَّة لإنهاء شؤون ملكته، وكان قد استأجر بيتًا خاليًا من أي شيء، ولعلَّه ترك مفتاح بيته الجديد مع أحدهم.. وقد كان صاحبنا ينوي أن يعود بعد إنهاء الملكة ليؤثث بيته ثم يأتي بأهله من جدَّة..

خطط زملاؤه -ولم أكن منهم- لهديَّة نوعيَّة يقدمونها لصاحبهم، وبعد أخذ وردٍّ تحددت الهديَّة! ذهبوا إلى بيته الخالي من أي شيء، ثم بدأت الشهامة تشكِّل التفاصيل المليئة بالحب الصادق الذي يجعل الريال خانة خالية في معادلة الأخوَّة الحقَّة!

هذا فرش (موكيت) البيت كاملاً، وذاك تعهّد بالأجهزة الكهربائية، والثالث اشترى مجلسًا والرابع والخامس..

عاد صاحبهم من جدّة ودخل بيته ليلا وفي نيّته أن ينام على طرّاحة اشتراها قبل أن يسافر ووضعها في إحدى الغرف، فتفاجأ ببيته وقد اكتمل تأثيثه تقريبًا! انعقدت الكلمات على لسانه.. يخبرني أنّه بكى لقد استطاعوا أن يدلفوا إلى خانة في القلب إن مُسَّت بشهامة، سالت الدموع بسخاء!

لم يكنْ صاحبُنا فقيرا، ولا محتاجًا، بل إنّ له مواقف مشابهة معهم، ولكنّهم كانوا يقدّمون لصاحبهم (هديّة) متخمة بالنبل.. فقط لا غير!

ما أرقاها من أخوّة هذه التي تجعل الرجال أهم من الريال.. وفكرة إدخال شعور السعادة إلى قلب، أهم من فكرة الاحتفاظ بمبلغ في جيب..

الطرقات المتخاذلة

كنّا شبابًا في الجامعة، تضيق أحوالنا كثيرًا، فإذا ما تأخرت

المكافأة احتجنا لجيوب بعضنا، فكنّا نبذل بقايا دراهمنا لبعضنا دون تحسس..

جعت ليلة من الليالي.. ولم يكن في جيبي ريال واحد..

لم أفطر ذلك اليوم ولم أتغدَّ ولم أتعشَّ.. قررت أن أتناسى الجوع ولكنَّه رضَّني، كلَّما حاولت أن أتجاهله يظهر لي بقرقرة في بطني، وبخواء في معدتي.. فعزمت على الخروج إلى صاحبيَّ الأقرب إلى قلبي..

طرقت الباب، وأنا لم أطرق بابا في حياتي لأجل أن آكل.. فكانت طرقات متخاذلة، طرقات ترجو الباب ألا يوصل لمن هم خلفه شكل الوهن الذي تنطوي عليه نفس صاحبها.. طرقات ترجو من خلف الباب ألَّا يفتحه!

فتح صاحباي الباب.. ولا بدَّ أن علامة استفهام كبيرة طفت في فضاء الغرفة، فالوقت متأخر، ولم يكن من عادتي أن أزورهما في مثل هذا الوقت.. ولكنَّهما هشَّا لي ورحبا بي.. لم أستطع الكلام، كنت أنوي أن أطلب منهما ريالين فقط إذ إن قيمة عشاء السكن الجامعي كانت ريالين! ولكن الحياء عقد لساني..

أخرجا لي -كرمًا منهما وضيافة- ما حوته ثلاجتهما الصغيرة (علبة زبادي وقطعة صامولي).. فأتيت على ذلك العشاء المتواضع (وقد كان قليلاً).. وبعد أن أخذنا وأعطينا في الحديث، كأني تجرأت فأفصحت لهما أنَّ ما أكلته عندهما -على قلَّته- كان الوجبة الأولى بعد عشاء الأمس!

تفاجأت، بل واستحييت عندما قال لي أحدهما -بلغة مليئة بالحرج- إنَّه كل ما يملكان! وإنَّهما ادخراه سحورًا لهما.. ولكنَّهما رأيا في وجهي أثر الجوع.. فآثراني به..

يا الله.. يا الله.. وأنا أكتب هذه الأحرف استشعرت روعة تلك الأخوَّة وأصالة تلك الأخلاق..

كيف يؤثر إنسان أخاه بلقمته.. وهو مثله لا يملك شيئا غير لقمته؟

لم نكن في الخمسين ولا الستين من أعمارنا.. كنا في الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة!

وفي اليوم التالي وصلت أحد هذين الصديقين حوالة مالية من

أهله، فقسمها ثلاثة أثلاث، فكان لكل واحد منّا الثلث! والثلث كثير..

أعرف من باع سيّارته ليساعد إخوته، ومن اقترض لمثل هذا الأمر، ومن كان يتحسس شؤون الشباب في المراكز فإذا علم أنَّ رحلة شبابيَّة لن تقام لأجل نقص المال، يخرج من جيبه الآلاف عن طيب خاطر ودون أن يُسأل ذلك، فقط ليرى الشباب المؤمن وقد ازداد إيمانا وتربية وتزكية في مثل هذه اللقاءات النافعة..

المال كان لا يعني شيئًا، أو بالأصح لم يكن يعني ما يعنيه الآن في عقول الناس..

توقيع الدم

ومن معاني الشهامة أن تسافر لأجل أخيك، لأجل لقائه، لأجل أن تسكب بحضرته شيئًا من الحب النقيِّ في كأس الأخوَّة في الله، ثم ترشفانه معًا.. وهذا معنى من معاني الشهامة نادر..

كانوا يسافرون ويكابدون المشقَّة والعناء لأجل أن يسعدوا

صاحبًا لهم بوجودهم جانبه ليلة زفافه..

وكان بعضهم يسافر ليزور أسرة صاحب لهم قد مات، فيتفقدوا حالهم، ويرتُقوا بشيء من المال بعض حاجاتهم، وكأنَّهم يقولون: صداقتنا أكبر من الموت.. ويعودون ليخططوا لزيارة أخرى، ولشهامة قادمة!

وهنا لقطة من الذاكرة تريدني أن أسجِّلها.. ليشهد القراء درسًا في الشهامة عميقًا..

إنَّها لقطة بعنوان «غانم الزهراني»..

هنا سأتحسَّر كثيرًا قبل أن أروي قصَّة هذا الرجل..

كان طُهرًا وكفى..

عرفته حافظًا لكتاب الله.. فقيه النفس، عذب الشمائل، كريم السجايا، صوته إذا تحدَّث يجعل ورودًا ما تنبت في أعمق مكان في القلب! نفع الله به كثيرا أهل «المخواة»

جمعني به الحب في الله، تحت ظل جامعة الإمام بالرياض.. ثم تفرَّقنا..

وبعد سنوات من الفراق قرر أن يمسح عن روحه وعثاء الشوق، فجاء إلى تبوك، لزيارة إخوانه في الله فقط لا غير! وما أكثر ما تأسَّفت لأنِّي لم ألتقِه إذ كنت وقتها في الرياض، ثم اتصل بي، ووعدني بزيارة لتبوك في العام المقبل، فسعدت بذلك الوعد كثيرًا، ومضت الأشهر وأنا أنتظر الإجازة أن تأتي..

وأتت الإجازة! فانطلق غانم كما وعد، تسوقه الأشواق، وتحدوه الشهامة الأخويَّة، محتسبًا الأجر عند ربّه، وقبل أن يصل إلى تبوك بقليل، يحدث له حادث مروِّع، يفارق على إثره الحياة.. يفارقها وقد وقَّع بدمه على سجل الشهامة.. أسأل الله -إذ حرمت من لقائه في الدنيا- أن ألقاه في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

أي تعليق على هذه القصة لن يعبِّر عن شيء   ألا تكفي دماء الشهامة لتعلِّق وتعبِّر وترسم التفاصيل

زحام الرجولة

ومن معاني الشهامة -التي تلوح كباقي الوشم- (زيارة المريض)..

انقلبت بأحد الأصحاب سيارته قرب مدينة أملج.. فرقد في مستشفى أملج، وهو لا يعرف في هذه المدينة أحدًا، فما كان منَّا إلا أن هاتفنا صديقًا لنا من أهل أملج الأشاوس، حتى يشرف على حالة صاحبنا إلى أن نصل..

انطلقنا بعد الدوام مباشرة، وصلنا بعد صلاة العصر بقليل، كانت مستشفى أملج مكتظة بأهل الخير، وأصحاب الأوجه الوضيئة! قلنا في أنفسنا: لا شكَّ أن شيخًا أو خطيبًا شهيرًا (منوّم) في المستشفى اليوم.. ومن بين أكوام البشر، أخذنا نسأل عن غرفة صاحبنا ونقترب، وإذا بالزحام يزداد، وصلنا الغرفة فإذا بها ممتلئة بالناس والهدايا والقهوة والحلوى!

أخبرنا صديقنا الذي هاتفناه وقد لقيناه في الغرفة أن كل من رأيناه في المستشفى إنَّما أتوا لزيارة صاحبنا!

وأدبًا منهم لـمَّا علموا أننا أصحابه خرجوا وودعونا وودعوه.. وقد ملؤوا قلوبنا بمعنى الأخوَّة في الله الصادقة!

وكان من معهود ما يفعله شباب تلك الحقبة أنهم إذا ذهبوا لزيارة مريض من أهلهم أو أصدقائهم أن يمرُّوا على غالبية

(المنوّمين) في الممر الذي يكون فيه ويسلِّموا عليهم ويواسوهم!
ليس شيئًا يفعلونه مرّة أو مرتين، بل دائمًا!!

توقيع

ستكون الحياة أجمل، إذا مزجناها بشيءٍ من الشهامة..

علمني السيوطي

لماذا لا تتوقف عمليات المناورة الاجتماعية هذه، لنتصافح من جديد، ولنلغ فكرة أن المجد والتميز والنجاح منطقة لا تتسع إلا لجسد واحد، وعقل واحد، وفكرة واحدة!

علمني السيوطي

في الساعة العاشرة تقريبًا، من أحد أيام عام ١٤١٨هـ ذهبت بصحبة اثنين من الأصدقاء إلى مكتبة العبيكان، وقد كانت ملاذنا الثقافي تلك الحقبة، نجد تحت سقفها الكبير شعورًا بالثقافة حتى ولو لم نشتر كتبًا! كانت أشعة شمس الصباح المتسللة من زجاج المكتبة تعطي شكلاً جميلا للكتب والناس والأشياء داخل المكتبة..

صعدنا إلى الطابق الثاني، وكنت وقتها مهووسًا بالكتب، والقراءة، والثرثرة حول هذه الأمور، وبينما نحن في أحد ممرات الطابق الثاني نتناقش حول كتاب للإمام السيوطي، إذا بأحد العاملين في المكتبة يمرُّ بنا، ثم يعطينا رأيًا حول ذلك الكتاب، أو حول الإمام السيوطي (نسيت!)، ولعلّ غرورًا ما أحبّ تلك اللحظة أن يطلّ برأسه من خلال كلماتي، فقلت وكأنّي أريد أن أنصح ذلك العامل بأن ينشغل بعمله ويتركنا ونقاشنا: متى توفي الإمام السيوطي تقريبًا؟ اختبار قدرات! هكذا بكل فجاجة

وصراحة، اختبار كان الراسب فيه هو المختبِر لا المختبَر! اختبار ظهرت نتيجته قبل البدء بالإجابة! رفع رأسه وأعلمني بلهجة سوريَّة غاضبة نوعًا ما أنَّ الإمام السيوطي قد مات عام تسعمئة وإحدى عشرة للهجرة (٩١١هـ).. وهو تاريخ وفاته بدقَّة!

شعرت بالحرج، وبأن ذلك الكبر الذي أطلَّ برأسه قد رجع خاسئًا وهو حسير..

الموقف لا أحسد عليه، بل حتى نظرات صاحبيَّ كان فيهما قدر من التشفِّي الذي كنت أستحقُّه بلا نقاش، ولا أقول هذا الكلام الآن، بل في لحظتها شعرت بأنِّي أستحق ما جاءني.. وبأنِّي قد تلقيت درسًا ممهورًا بختم الإمام السيوطي رحمه، فلا أقرأ كلامًا بعدها له أو أرى اسمه، أو أقع على عدد ٩١١ في أي كتاب، أو نهاية رقم جوَّال، أو رقم رحلة طيران.. إلا وأحس بباب غرفة شوهاء داخل قلبي ينفتح ويطلُّ من خلال ظلمتها وجه قميء جدًّا.

أزمة الثياب الرثّة

جاء ذِكر أحد طلبة العلم في إحدى المناطق، وقد رفعه الله بالعلم مكانًا عليًّا، فأخبرني محدثي أنَّه كان يحتقر هذا الشخص قديمًا عندما كان يراه ينتقل من درس إلى درس، فيراه هزيل الجسد، بالي الثياب، فيقول بسخرية: هل يظن هذا أنَّه سيغدو طالب علم في يوم من الأيام؟

ومرَّت الأيام، وأراد الله أن يُري صاحبي أنَّه على كل شيء قدير، وأن الناس ليسوا بثيابهم، ولا بأجسادهم، وإنَّما بهممهم، وأعمالهم..

دخل الإمام الشافعي بلدة، وكان يرتدي ثيابًا رخيصة، فلم يؤبه له، ولم يعلموا أن الذي أتاهم هو من الشخصيات التي يصعب أن تتكرر، فقال:

عليَّ ثيابٌ لو تباع جميعها	بفَلْس لكان الفلس منهنَّ أكثرا
وفيهنَّ نفس لو تقاس ببعضها	نفوس الورى كانت أجلَّ وأكبرا

لا تجعل الثياب الرثّة إحدى أزماتك، ولا تضف إلى عقدك

النفسيَّة عقدة الجسد الهزيل.. فعبد الله بن مسعود كان ذا ساقين هزيلتين، حتى إن الصحابة ضحكوا عليهما لما كشفتهما الريح، وهو يرقى على إحدى الأشجار، فجاء النبي ﷺ بالمعيار الحقيقي، فقال: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد**»[1]

وجبل أحد لمن لم يزر المدينة ليس جبلا بالمفهوم الذهني للجبل، بل سلسلة جبال تروعك ضخامتها وهيبتها.. تُرى ما وزنها؟ بل تُرى ما وزن هاتين الساقين العظيمتين؟

فتنة المتبوع

ما الذي يجعلنا نمارس الأستاذية على الآخرين؟ مع أنهم لم يصارحونا برغبتهم في حَنْيِ الركب لدينا، والتتلمذ على ترَّهاتنا؟

لماذا يريد الإنسان الذي بداخلي اجتياح الإنسان الذي بداخلك؟

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧/٩٨) (٣٩٩١). وقال الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦/٥٧١): صحيح.

لماذا لا تتوقف عمليات المناورة الاجتماعية هذه، لنتصافح من جديد، ولنلغ فكرة أن المجد والتميُّز والنجاح منطقة لا تتسع إلا لجسد واحد، وعقل واحد، وفكرة واحدة!

لماذا لا نفهم أننا لسنا محور الكون؟ وأنه بإمكاننا أن نكون جيِّدين، دون أن نقضي على جودة وطموح وتميُّز الآخرين؟

رحم الله رجالات السلف الصالح الذين عرفوا كثيراً من أدواء النفوس، وداووها قبل ظهور المدارس النفسية التحليلية والسلوكية، وقبل طباعة «دع القلق وابدأ الحياة» و«العادات العشر» و«القبعات الست»

فهذا إبراهيم النخعي ـرحمه الله ـ لما رأى أن الاستناد إلى السارية يشعره أنَّه فوق من حوله بمرتبه، رفض أن يستند! قال تلميذه الأعمش: جهدنا بإبراهيم أن نجلسه إلى سارية فأبى![1] بل كان ـرحمه الله ـ لا يبتدئ حديثًا حتى يُسأل! إمعانًا منه في وضع شخصيَّته في قالب يجعل حجمها غير قابل للتمدد!

وهذا الحارث بن قيس ـرحمه الله ـ كان يجلس إليه الرجل

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٤٤٦) (٥٣٥).

والرجلان، فإذا تتابع الرجال بالجلوس حوله نهض وتركهم![1]

وكأن روحه تردد:

خذوا كلَّ دنياكمُ واتركوا فؤادي حرًّا طليقًا غريبَا

وهذا علقمه طُلب منه أن يقعد لتعليم الناس السُّنَّة، فقال: أتريدون أن يُوطأَ عقبي؟[2] أي أن يزدحم الناس حولي! والعجيب أن الأمر الذي نتحارب عليه، هو الأمر الذي يهرب منه علقمة! الفلاشات، الجماهير، الشهرة!

وهذا سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ رأى الناس يتجمهرون ويمشون خلفه، فلم يشعره التجمهر بالنشوة، لم يظن أن ذلك من عاجل بشرى المؤمن، بل نهاهم قائلا: إن صنيعكم هذا مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع![3]

إنَّه العلم الذي يحمل معه العمل، لا العلم الذي يأتي حاملاً حقيبة الآفات النفسية!

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٤٤٧) (٥٣٨).

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٤٤٧) (٥٣٩).

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٤٤٩) (٥٤٤).

وقبله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قالها صريحة لمن يمشي خلفه، بطريقة لا أظنها سهلة على كثير منا: «لا تطؤوا عقبي، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني رجل منكم»![1]

فكانت حياتهم ـ رضي الله عنهم ـ انعكاساً لمعاني التقوى التي غرسها القرآن الكريم، وسقتها السنة المطهرة في قلوبهم الحيّة..

موسم الحاجة إلى غرور

إذن فقبل أن تعيد إلى الآخرين حقوقهم في المجالس، فلا تحتقر هذا، ولا تظلم ذاك، ولا تنزل من قدر زيد، ولا تستهن بقدرات عمرو، ضع نفسك في مكانها الطبيعي، اعرف حدودك الجغرافيَّة، إن الذين يسألون الآخرين متى مات الإمام السيوطي، ماتت في دواخلهم قبل ذلك معانٍ مهمَّة أظهرها قوله سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنت لا تعلم شيئا، فلماذا تنفخ صدرك بمعلومات مبعثرة، أو حتى مرتَّبة، يسبقها الجهل، ويتبعها الجهل،

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/٤٥١) (٥٤٩).

ويتخللها الجهل؟

الذي عليك بخصوص الإمام السيوطي ــرحمه اللهــ هو الترحُّم عليه، أو الاستفادة من علمه، أو إهداء كتبه للآخرين، أما أن يكون أيقونة غرور تضيفها لأيقونات شخصيَّتك الضعيفة التي راكمتها على سطح مكتب حياتك.. ثم تضغطها عند الحاجة إلى تنفُّج ما، فلا!

خزي

كان الشيخ علي الطنطاوي شابًّا واسع الاطلاع، عميق الثقافة، ضليعًا في اللغة والأدب والبيان.. وكان ذا قلمٍ يطاوعه إذا كتب، فيأتي بالفرائد والشرائد، فيظن قارئه أنَّه يقرأ لشيخ في الخمسين، لا لشابٍّ في الخامسة والعشرين..

وكان يبعث بما يكتب إلى مجلَّة الرسالة، وهي أشهر مجلة في تلك الحقبة، فتنشر مقالاته مع مقالات عمالقة ذلك الزمن كالرافعي والعقاد..

وكان أن يمَّم الشيخ عليٌّ بغداد في تلك السنوات معلمًا، فلما ذهب إلى الثانوية التي وُجّه للتعليم فيها، سار في ممرات المدرسة، متوجهًا إلى القاعة التي سيكون مدرسًا لطلابها، وقد كان ـ رحمه الله ـ شابًّا قصير القامة، قريب الملامح من الفتيان، يظنُّه الناظر طالبًا لا معلمًا، فلما وصل إلى القاعة تسللت إلى سمعه كلمات أستاذ مادَّة الأدب وهو شيخ كبير في السنِّ يودِّع طلابه بحزن، ويخبرهم أن الشيخ عليًّا الطنطاوي سيكون خير خلف له، ويهنئهم على أن سيرشفوا من علمه وأدبه، وفي تلك الأثناء قرر علي الطنطاوي أن يدلف إلى القاعة ليشكر ذلك الأستاذ النبيل

فما إن طرق الباب وأطلَّ، حتى أتته سبَّة مقذعة من ذلك الأستاذ، وقد ظنَّه لقصر قامته، وشبابيَّة ملامحه طالبًا يريد شيئا..

فابتسم عليٌّ وأراد أن يتكلم فأردف ذلك الأستاذ بشتيمة أخرى.. ثم قال له: أتريد أن تعلم أنَّك حمار؟ تعال وكلمنا عن الشاعر «البحتري»!

فدخل علي، وافتتح كلامه بمقدمة عن عصر الشاعر، ثم تحدث عن ولادته، ونشأته، وعرَّج على بداياته، ثم استطرد بشيء

عن أبي تمَّام، وتأثر البحتري بشعره، واستفادته منه، ثم أتى بشيء من شعره، وعمل مقارنة بينه وبين أبي تمَّام.. وهكذا أخذ يتدفَّق في حديث الأديب المتفنن، وكان الأستاذ في تلك الأثناء فاغرًا فاه، قد بلغ منه التعجُّب، والخزي أيضًا، مبلغًا عظيمًا، ثم بعد أن أنهى عليٌّ حديثه سأله الأستاذ: من أنت؟ فقال بابتسامة: أنا علي الطنطاوي.. وكان ما كان

لو سألنا ذلك الأستاذ عن أمنيته، لقال: أن يرجع الزمن دقائق، فأسكت عن كلماتي اللاذعة، إذ إنها لم تكن ضروريَّة

كل من حولك لديهم مميزات، وعندهم ما يجعلهم يرون أنفسهم أناسًا ذوي أهميَّة، ليس شرطًا أن يكونوا مثل علي الطنطاوي، ولكنَّهم عند أنفسهم أهم من علي الطنطاوي عندك!

ذكرى

الناس مثلك تمامًا، يحبون أن يظهروا بمظهر جميل، سواء كان ذلك الجمال وسامة في الشكل، أو ثقافة، أو جمال صوت، أو كل

ما يعده الآخر ميزة، فلا تكن المواقف التي تجمعك مع الآخرين هي أسوأ ذكرياتهم، فلا يذكرونك إلا بمعيَّة صوتك وأنت تحتقر الأشياء التي يظنونها جميلة، ونظراتك وأنت تشير إلى الآخرين أن انظروا؛ إن بحضرتنا غبيًّا ما!

كن ذكرى جميلة في خيال من حولك، لعلَّ دعوة تأتيك وأنت في قبرك، أو ذِكرًا حسنًا يشيد بمحاسنك في مجلس ما، أو قيمة تنتقل بفضلك إلى جيل قادم.. كن عطرًا يتضوَّع في ذاكرة الأيام..

توقيع

ليس هناك ما يجعل احتقارك للآخرين ضروريًا، فلا تطوِّق نفسك بالمواقف المخجلة، ولا تصب على ذكرياتك الجميلة ذَنوبًا من شعور الخزي.

المعلم ذلك الإنسان

رأيت معلمًا ينحني باتجاه الأرض، ويربط بيديه الحانيتين حبل حذاء تلميذه!

ورأيت من يدفع من خيّر ماله ليشتري الهدايا الثمينة، حتى يثبّت بها معاني التميّز والتفوّق في قلوب طلابه ذوي النباهة الخاصة..

المعلم ذلك الإنسان

رآني مدير مدرستي وأنا أعرج في ساحة المدرسة، فأقبل إليَّ وسألني عن سبب ذلك العَرَج، فرفعت قدمي لأريه ثؤلولا اختار بطن القدم ليستقرَّ فيه!

كان ألم ذلك الثؤلول شديدًا، خاصَّة عندما أمشي، لذلك لم أكن أستطيع أن أسير باعتدال.. رأيت علامات التوجُّع ظاهرة على وجهه، رسم ألمي على ملامحه خارطة حزن..

كان الأستاذ إبراهيم (مدير ابتدائيَّة السعوديَّة بتبوك عام ١٤٠٤هـ) ذا شخصيَّة صارمة، وملامح صخريَّة تستعصي على الابتسامة، ومع ذلك فقد تحوَّل معي ومع أخي إلى كتلة من الحنان والعطف بسبب أنَّنا كنَّا يتيمين! ولا أنسى أنَّه كان يعاقب المتأخرين عن الطابور، ويستثنينا، وكان إذا ما سمع في فصلي ضوضاء يدخل بعينين تنبعث منهما شدَّة الحزم، فإذا ما اكتشف أنِّي أنا مصدر الضوضاء عادت ملامح الأب إلى وجهه، وحلَّ

المسألة بشيء من اللطف!

أخذ يتأمّل الثؤلول وكأنّه في قلبه ثم أوصاني بأبوّة: إذا ذهبت لتنام الليلة فقل لأمِّك أن تقطِّع بصلة على هيئة شرائح، ثم تحمِّر تلك الشرائح على النار، وبعد ذلك تضعها على قدمك وتلفها وستشعر بفرق كبير، كرر هذا مرّتين في اليوم وستشفى بإذن الله..

عدت إلى البيت وأخبرت والدتي بعلاج المدير، فسارعت بعمل ذلك لي، ولا أظن أن ذلك الثؤلول صمد لأكثر من يومين، كنت عندما تضع أمّي شرائح البصل أشعر بالألم وهو يغادر قدمي وكأن البصل يمتصّه امتصاصًا!

وأتساءل الآن: هل كان هناك تعميم من وزارة التعليم يقضي بأن يتحوّل مديرو المدارس إلى آباء حقيقيين، يعتصرون ألـمًا لأوجاع طلابهم؟ أم إن الإنسان الذي يسكن قلب الأستاذ إبراهيم هو من أمره بذلك الإحسان والعطف الذي ما زلت أحتفظ به في خانة من قلبي لا يمكن أن يتسلل إليها النسيان.. هذه ثلاث وثلاثون سنة مرّت على تلك الشرائح، وتلك الوصيّة الطبيّة وما زلت أتذكر ملامح الوجع الصادق في وجه ذلك الإنسان

لقد مات!

في متوسِّطة الأبناء الثالثة بتبوك في بداية عام ١٤١٠هـ وكنت وقتها في الأولى المتوسِّطة، دخل علينا الأستاذ توفيق في الحصَّة الأولى، وكان الحزن يضيف على وجهه الكهل، وشعرات لحيته البيضاء؛ شيئًا من الرهبة والخشوع، صَمَتَ الفصل منتظرًا شيئًا سيقوله الأستاذ توفيق..

وبصوت هادئ مبحوح، عزَّانا في وفاة الطالب «علي صويلح» شعرت لحظتها أن هذا الاسم من موجودات ذاكرتي، ولكنِّي نسيت للحظة صاحبه، شعرت بيد داخل تلافيف مخِّي تبحث بين الأوجه المتكدِّسة، تريد العثور على الوجه الخاص بعلي صويلح ــرحمه اللهــ، وفجأة دهمني شيء لا أنسى وقعه، لقد وصلت إلى صورته! إنني أعرفه جيدا، صاحبي في الابتدائيَّة، وهو من طلاب الفصل المجاور، كان ولدًا طيبًا جدًا..

شعرت بغرابة هذا الشيء الذي اسمه الموت، إحساسي بالموت تلك اللحظة كان رماديًا، كان شيئًا صلدًا كالجدار، كان كالهوَّة

السحيقة! لا أذكر أنِّي شعرت بذلك الشعور عندما مات أبي وأنا في السادسة من عمري، أو عندما مات جدِّي وأنا في الثانية الابتدائية! يبدو أنِّي نضجت لحظتها ووعيت معنى الموت!

رفعت رأسي، فإذا بالأستاذ توفيق كما هو، حزن خافت قد تخلل مسامات وجهه الصَّبوح، وكأنَّ الذي مات أحد أبنائه..

شيخ في الستين من عمره، لا شك أن الذين ماتوا من أقاربه ومعارفه بالعشرات، كيف استطاع أن يحزن على طالب لا أظنُّه يعرفه، خاصَّة ونحن في أوائل أيام الدراسة؟

هل هناك نظام يفرض على المعلِّم أن يحزن على وفاة أحد تلاميذه؟ وأن يقتطع من حصَّته دقائق ليعزِّي أبناءه الطلاب في وفاة زميلهم؟

أم أنَّ الإنسان الذي يستوطن قلب المعلِّم هو من يفرض ويحتِّم مثل هذه الأنظمة الموغلة في الإنسانيَّة؟

ليس هناك كاميرات ترصد أدق تفاصيل الحزن وهي تتبعثر في وجه ذلك الستِّيني؟ حتى نضع التمثيل احتمالاً من احتمالات ذلك التأثر

تُرى كم من الإنسانيَّة كنَّا سنخسرها لولا أولئك الرجال الذين لم يكتفوا بتعليمنا العلم فحسب، بل علمونا فوق ذلك الإحساس، والحب، والحنان

زيارة مفاجئة

أخبرني ابن خالتي أنَّه خرج من مسجدهم ذات يوم فوجد أستاذًا درَّسه قبل سنوات، فسلَّم عليه بحرارة، وتساءلا عن الأخبار، وقد كان ذلك الأستاذ قبل ذلك يهتم بعقد علاقة حفظ وفهم واهتمام بين ابن خالتي والقرآن الكريم..

حاول ابن خالتي أن يقنع أستاذه بمصاحبته ليرتشف معه فنجان قهوة في منزل والده، فأبى الأستاذ، ثم كانت المفاجأة، قال له ذلك الأستاذ: إنما جئت إلى «تبوك» للسلام عليك أنت وزملائك.. وسأعود بعد هذه المهمة مباشرة!

هكذا.. يقتطع من وقته، وجهده، وراحته جزءًا ثمينًا ليطمئن على قلب تلميذ زرع فيه قبل سنوات حب القرآن، والانتماء لمعاني

المصحف.. وليقول له: أنت مهم عندي لما في قلبك من قرآن، فحافظ على أهميَّتك

ما كميَّة السلام التي تعمر قلوب أولئك العظماء؟ ما اسم ذلك العنصر الذي انبعثت مادَّته في قلوبهم فجعلتهم يتألمون، ويهتمُّون، ويعيشون هموم أبنائهم الطلاب؟

إن هذا الشعور الإنساني لا يمكن أن يخضع لاختبار، أو أن يتمَّ الحصول عليه بترشيح؟ أو أن يدرَّس في جامعة ما، إنَّه يأتي هكذا، ويتشكَّل هكذا، وينضج هكذا من الله!

التعليم والمعلِّم هما الوعاءان اللذان تتركَّز فيهما الرحمة والإنسانيَّة، إذ إن الظرف الأنسب لتكون إنسانًا هو أن تعيش مع الإنسان في مراحله الأولى، الإنسان قبل التوحُّش، والطالب في جميع مراحله الدراسية هو المادَّة الأولية للإنسان قبل أن تحتوشه الشياطين، لهذا السبب كان المعلِّم من أكثر البشر إنسانيَّة! كيف لا، وهو يتعامل مع كائنات إنسانيَّة بحتة؟

شيء مقدَّس

أخبرني زميلي أنَّه في رحلة علاجيَّة إلى ألمانيا، حصل تجاهه اشتباه خاطئ، فقررت سلطات المطار احتجازه هو وأخاه على قيد التحقيق، كانت معاملة الشرطة الألمانيَّة غاية في الفظاظة والشدَّة، وبعد دقائق وهما في غرفة الاحتجاز دخل عليهما أحد الضباط وطلب هُويَّتيهما، فكان مما قدَّماه للضابط: البطاقات التي توضِّح أن مهنتهما التعليم، قال زميلي: إن ذلك الضابط تغيَّرت معاملته، وانخفض صوته، واعتذر إليهما، ثم جاء بعض رجال الأمن وقدَّموا الاعتذار الشديد لهما! سأله زميلي عن سبب التغيُّر المفاجئ في المعاملة فأخبره أن المعلِّم شيءٌ مقدَّس في ألمانيا!

ليس هذا في ألمانيا فحسب، كل دول العالم الناهضة تجعل التعليم من أولى أولوياتها، وتعلم جيِّدًا أن المعلِّم هو صانع الحضارة، ومنتج التنمية، وأن ما تصرفه على التعليم اليوم تجنيه غدًا، فالمعلِّم العظيم ينتج جيلاً عظيمًا، والمعلِّم الذي أهلكته الأنظمة، وحاصرته التعاميم، وأضعفت هيبته الإجرائيَّات المعقدة؛ سيُخرج جيلاً هزيلاً

المعلِّم هو المشكِّل الأهم لتصوُّرات الجيل، وما لم يعط ما يستحقُّه من احترام وهيبة وتقدير، فسيتشكَّل الجيل وفق لمسات يد مرتعشة، وقلب يشعر أن هناك أشياء يراد لها أن تنهكه، وأن تثير الشكوك حوله، وأن تشير إليه بتهمة الخيانة!

المعلِّم إذا أعطي حقَّه، صار التعليم هو همَّه، وإن نزع حقُّه، صِار هذا الحق المنزوع هو همَّه وغمَّه وأحلامه وأحاديثه الخافتة!

لماذا نحوِّل ذلك القلب النابض إلى قطعة خزف، ونتعامل معه وكأنَّ التعليم مجرد وظيفة، لا رسالة، ومهمَّة نبيلة؟

لأنه إنسان

رأيت معلمًا ينحني باتجاه الأرض، ويربط بيديه الحانيتين حبل حذاء تلميذه!

ورأيت من يدفع من حُرِّ ماله ليشتري الهدايا الثمينة، حتى يثبِّت بها معاني التميُّز والتفوُّق في قلوب طلابه ذوي النباهة الخاصة..

ورأيت من يرعى موهبة طالبه الأديب، ويثني عليه، ويهدي إليه الكتب، حتى ينمّي زهرة الأدب في نفسه، التي رأى برعمها الصغير ذا توهُّج!

وعلمت عمَّن يسهر الليل ليكتب لطلابه عصارة الكتب، ويسهِّل لغة المراجع، لأنَّه ظنَّ أن هناك شيئًا يجب أن يعلموه، ومقدمات يجب أن يعوها قبل الدلوف إلى تفاصيل المنهج!

وهناك من يخرج من بيته إلى المستشفى ليزور طالبه (المنوّم)، وآخر يبكي على طالبه المتوفى، وثالث يقف أمام طالبه الصغير بتواضع ويقول له: آسف أخطأت بحقِّك!

وهذا معلم يجلس يعلِّم طلابه فنون التصوير، وفنيات الإخراج، ويرعى مواهبهم بحدب وفنٍّ..

وذاك يستقطع من وقته ليقف في ممر المدرسة يختبر بعضهم في حفظ آيات من القرآن الكريم، لم تطالبه الوزارة أن يحفِّظها تلاميذه ولكن أمَرَه حسُّ المربي -الذي يعلم أن القرآن نور القلب، وتهذيب الخلق- أن يفعل ذلك..

وأعلم أن من المعلمين من يتحدث لطلابه عن بر الوالدين حتى تدمع أعينهم البريئة، ويقررون التغيُّر، دون أن يكون في مفردات تلك المادَّة شيء يقول له: (تحدَّث عن البرِّ)، وأتساءل: لو علم الأب أن سبب تغيُّر ابنه هو هذا المعلِّم، فهل سيتحدث في المجالس عن المعلِّم بالطريقة المستهجنة التي تشوِّه صورة ذلك الإنسان..

بل هناك من الآباء من ترك عادة التدخين، وغيرها من العادات السيئة، بسبب نصيحة من ابنه أودعها أذنه معلِّم مخلص، يدرِّس مادَة لا علاقة لها بمادَّة النيكوتين!

وأعرف، وأعلم، واسمع -وأنت كذلك- عن هذا الإنسان الذي لولا الله ثم اجتهاده، واهتمامه، وإنسانيَّته، لم تنهض أمَّة، ولم يتطوَّر شعب، ولم يتشكَّل واقع..

ليس هناك نظام في العالم يستطيع أن يراقب المعلِّم في فصله وهو يودع عقول طلابه الصغار مئات المبادئ والمُثُل كل يوم، وليس هناك قرار يستطيع التسلل إلى حروف المعلِّم ليعلم كيف خرجت، وعن ماذا تحدثت، ولماذا قالت ما قالت..

المعلِّم ليس موظفًا تنتهي عمليَّة تقييمه ومتابعته ببرنامج حضور وانصراف، ومشرف يمر يلحظ دخوله وخروجه.. وتعميم يوقِّع عليه في الصباح ليتغيَّر به في المساء، المعلِّم هو المسؤول عن عجينة الأرواح الغالية، وعن صناعة أرواح الجيل القادم، وليست لغة التشكيك هي التي تجعله يفعل ذلك بجدارة واهتمام وحب وإخلاص، فقط لغة الثقة، وتعزيز المكانة، وإعطاء الصلاحيات التي تليق به هي ما يفعل ذلك وزيادة

المعلم هو الإنسان الوحيد الذي تتاح له من الفرص لخيانة الأمانة ما لا تتاح لغيره! هناك إمكانيَّات كبيرة يستطيع من خلالها أن يخون الأمانة، لو أراد! ولكنَّه دائمًا وأبدًا لا يريد ذلك.. لأنَّه إنسان!

توقيع

ارفع يديك وادع لتلك القلوب التي علّمتك الحرف، والحب، والإيمان..

علبة فارغة

الصديق هو القريب الذي اخترته بنفسك، والذي فضّلت أن تكون الوشيجة التي تربطك به أهم من الجينات، وأنصع من الدم، وأطول من سلسلة الأجداد.. إنّها رابطة الروح!

علبة فارغة

كان عندي صديق حميم اسمه «أمين»، وكان يشاكلني ويشابهني في أشياء كثيرة، كان يتيمًا مثلي، وجارًا لي، وفي نفس مرحلتي وفصلي، بل إنَّه يشبهني حتى في ظاهر شكله وملامح وجهه!

وكان بيني وبينه اتفاق غريب، مفاده أن يعطيني علبة العصير الكرتونيَّة بعد أن يشرب ما فيها لأقوم أنا بفتح ألسنتها المثلثة التي تكون في جانبيها وتحتها ثم أفجّرها تحت قدمي وبعد ذلك أودعها أي صندوق نفاية

كنت أجد لذَّة كبيرة في رفع ألسنة علبة العصير الكرتونيَّة المثبَّتة بمادَّة صمغيَّة، وتشكَّلَ عندي مع الأيام شعورٌ بأن هذه الممارسة حق من حقوقي، ونسيت أن تلك العلبة ترجع ملكيَّتها لصديقي «أمين»، وله وحده الحق في أن يعطيني أو يمنعني إيَّاها، دون اعتراض من قِبَلي

ذات يوم كان مزاج أمين غير منسجم، وذلك جعله يرمي العلبة الفارغة مغايظًا لي من فوق شبك المدرسة! نظرت إليه غاضبًا وقررت أن ألقِنه درسًا قاسيًا!

كان ملخَّص الدرس أنِّي مسحت اسمه من قائمة الأصدقاء التي لم يكن فيها غير اسمين أو ثلاثة!

بمعنى أني خسرت نصف أصدقائي أو ثلثهم بسبب علبة فارغة!

أكملت تلك السنة بلا أمين   صرنا متهاجرَين؛ لا ينظر بعضنا إلى بعض، ولا نجلس متجاورين، ولا نتفسَّح معًا، ولا يكمِّل بعضنا نقص بعض؛ بسبب علبة عصير!

طريق العودة إلى البيت كان يتَّسع لنا جميعًا، والآن بات ضيِّقًا، لا يمكنه أن يضمُّنا معًا، صرت أنتظر قليلاً حتى يسبقني أمين إلى بيته، أو ينتظر هو حتى يمكنني أن أسبقه إلى بيتي..

صرت أستطيع النظر إلى كل الجهات، إلّا الجهة التي يكون فيها أمين! مع أن مساحة كبيرة في قلبي كانت مليئة بصور ضحكاته، ومترعة بصوت أحاديثه، ومكتظة بذكريات أيامي معه

لم أكن مرتاحًا لقرار قطع العلاقة الذي اتخذته لحظة غضب، ولكنِّي لم أستطع أن أتراجع عنه مكابرة وتعاليًا! فخسرت -بسبب قرار غير مدروس- إنسانًا كان يملأ أيامي بالجمال والسعادة.

لم أُورد القصَّة لأخبركم أن شيئًا تافهًا جعلني أخسر أهم صديق عندي، ولكنِّي أوردتها لأقول لكم: كثيرة تلك الأمور التافهة التي نخسر لأجلها أحب الناس! مليئة الحياة بعلب العصير الفارغة التي تنتظر أن تفجِّر نفسها في وجه علاقة حميمة، وصداقة قديمة!

والدرس يقول لنا: العلبة الفارغة لا يمكن أن تكون عوضًا عن صديق حميم! فمكان الصديق الحميم لا تملؤه علبة فارغة أبدًا، بل يملؤه قلب يحب وينبض ويشعر.. أما العلب الفارغة فالمكان المناسب لها هو سلال النفايات

كلما تذكرت قصة صاحبي أمين، ابتسمت للموقف الطفولي الذي علمني -على سهولته- ألَّا أستغني عن قلب امتلأ بحبِّي، من أجل علبة امتلأت بالهواء!

الشيطان في التفاصيل

علاقة الصداقة علاقة ذات بعدين بطبيعتين مختلفتين!

بُعْد تلفُّه الوشائج، والروابط القويَّة، وتشعر معه أن هذا الإنسان قطعة منك لا يمكن أن تنفصل عنك بحال، وبُعْد آخر تحيط به غوامض شعوريَّة، تجعله رقيقًا، يكاد يتمزَّق لأدنى هبَّة ريح، كجدار طينيٍّ قديم يوشك أن ينهدم لأقل اتكاء عليه!

نعم الوضع فيه من الغرابة ما فيه، ولكنَّه واقع معروف لدى الناس لا يحتاج إلى استشهاد أو استدلال.. كل الناس يعرفون أن لديهم أصدقاء تربطهم بهم علائق قويَّة، ويعرفون أيضًا أن مشاكل تافهة وعلب عصير فارغة هددت تلك الصداقات، أو أنهتها كليًّا!

هناك تشابه بين علاقة الصداقة وعلاقة الزواج! فالصداقة علاقة متينة تنتج أنسًا ومحبَّة، وتخلق هدوءًا نفسيًّا لا مثيل له، وفي المقابل يمكن أن تهدم كلمة واحدة هذا البنيان الشامخ وتجعله كأمس الدابر!

الذي عليك تجاه علاقة الصداقة هو أن تتمتَّع بها على حَذَر!

وأن تجعلها كالكتاب، تمسكه بقوَّة، وتفتح صفحاته بلطف! أو اجعلها كالوردة، تمسك بأصلها الأخضر بقوَّة، وتلمس رقائقها الملوَّنة بأطراف أصابعك، تستمتع بشكلها ورائحتها، دون محاولة سبر غورها!

وكما يقال: «الشيطان في التفاصيل»، فكذلك شيطان الصداقة يكمن في التفاصيل، فلا تتجرأ أن تفتح أدراج صاحبك الخاصَّة، وإذا فعلت ذلك فكن حذِرًا أشد الحذَر، فشياطين بعدد الأيام التي عشتها معه تحيط بكما في تلك اللحظات

البطولة

يجب علينا إعادة قراءة وتعليم درس ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، وكيف أن الله اختصهم بثناء خاص! ثم نبدأ بإشاعة هذا الخلق من جديد، وغرسه في تربة علاقاتنا..

يقول النبي ﷺ في حديث عجيب عند ابن ماجه: «**ما تجرَّع عبد جَرعة أفضل عند الله ٥ من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء**

وجه الله تعالى»[1]

هذه جرعة البطولة، هذه الكأس المقدَّسة على وجه التحقيق.. هي الجرعة التي تفصل بين أولي العزم من الرجال، وأولئك الذين يقال عنهم: كلمة تأتي بهم، وأخرى تذهب بهم!

أذكر أستاذًا درَّسني في معهد جدَّة العلمي كان يجد من بعض الطلاب ما يغضبه، فكان كثيرًا ما يكظم غيظه ولا ينفذه، ويعفو ويسامح، وعند كل موقف مُغْضِب يذكِّر نفسه بصوت مرتفع بحديث النبي ﷺ: **«من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّره من أي الحور شاء»**[2]

وما أجمل الموعظة إن اقترن بها وحاذاها تطبيق عملي..

هذا الكظم الذي مارسه أستاذي مع تلاميذه، هو الذي يجب أن يسود حياتنا، مع أهلنا، وأصدقائنا، والناس جميعًا..

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٤٠١/٢) (٤١٨٩). وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠/٣): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٤٨/٤) (٤٧٧٧). وقال الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١١١٢/٢): حسن.

إن أعظم قوّة هي تلك التي تصرع بها نفسك، وتتغلّب على الطاقة الشريرة التي تريد أن تنقضّ على من حولك، يصوّرها النبي ﷺ بقوله: **«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[1]، نعم وكأنَّك تفقد نفسك إذا غضبت، ولا تسيطر عليها، ويفلت زمامها من يديك، ولكن الشديد هو الذي يستطيع أن يُلجمها ويخطمها بالحق! وفي رواية أخرى للحديث يقول النبي ﷺ في رسم دقيق للتفاصيل: **«الصرعة كل الصرعة -كررها ثلاثًا- الذي يغضب فيشتد غضبه، ويحمرُّ وجهه، فيصرع غضبه»**![2] إذن هي حلبة مصارعة حقيقيَّة، والفائز فيها هو الذي يطرح نفسه أرضًا.. ويتخلَّص من نعرة الموقف، ليدخل في رحابة البطولة..

أخبره

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٨/٨) (٦١١٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢٠١٤/٤) (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧/٣٨) (٢٣١١٥). وقال الألباني في «صحيح الجامع الصحيح الصغير وزيادته» (٧١٧/٢): حسن.

حفظ لنا التاريخ أشكالا من العلاقة والصداقة التي تجعلنا نتخذ من بعض فصولها نماذج نسير على منوالها..

فأبو بكر وعمر ـرضي الله عنهماـ نموذج مكتمل للصديقين اللذين يصعب انفكاك كل منهما عن الآخر، ففي دروس البذل تجدهما متحاذيين، وفي لحظات البكاء تكاد ترى دموعهما تمتزج، وفي لهيب المعارك تراهما متجاورين.. كان كل واحد منهما مستشارًا لصاحبه، ورفيقًا له، ومجالسًا، بل وحتى اللحظات النفسيَّة القاسية تجد أبا بكر يهدِّئ من انهيار عمر لموت النبي ﷺ، وتجد عُمَرَ يجلس بجوار أبي بكر عند نزعه الأخير!

وعندما تتزعزع بعض الحقائق في نفس عمر لا يجد صدرًا يبثُّه ما يختلجه من أفكار إلا صدر صَديقه أبي بكر.. كما حدث يوم الحديبية!

هذه صداقة من النوع النادر، الذي تتراجع عنده جميع العلب الفارغة والممتلئة؛ لتبقى رمزًا للصداقة الخالدة المصنوعة في ظل عقيدة كالجبال، ومبدأ بسموِّ السماء نفسها..

هناك صداقات أخرى يمكنك أن تمرَّ عليها لتلمح ما فيها من

عمق، ومتانة مثل صداقة الزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله، وصداقة المهاجرين والأنصار، وصداقة الإمامين الشافعي وأحمد، والتلمذة والأستاذيّة القريبة جدًّا من الصداقة، والتي تلمحها في العلاقة ما بين ابن تيمية وابن القيّم رضي الله عن الجميع..

إن أرقى أشكال الصداقة هي تلك التي يكون القرآن دستورها، وتكون العقيدة منشأها، إنها ما يسمّى بالأخوّة في الله، وهي التي حرص الإسلام على وجودها، حتى إن صحابيًّا أتى إلى النبي ﷺ يُعلمه أنّه يحب فلانًا في الله، فقال له النبي ﷺ: اذهب وأخبره![1] وهذا دستور يجعل الصداقة والأخوّة من المطالب التي تتمتّن معها أواصر المجتمع، وتجعل الحياة أجمل وأسهل وأفضل

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤/٣٣٣) (٥١٢٥).

ثم مات

الصَديق هو القريب الذي اخترته بنفسك، والذي فضَّلت أن تكون الوشيجة التي تربطك به أهم من الجينات، وأنصع من الدم، وأطول من سلسلة الأجداد.. إنَّها رابطة الروح!

يخبرني أحدهم عن صديق له مات منذ ستة أعوام أنَّه لم تمرَّ عليه ليلة منذ أن مات هذا الصديق دون أن يدعو له بالرحمة والمغفرة، وأن يلتقي به في الجنَّة!

وأنا ممن حضر وشهد فصول هذه الصداقة الخالدة، والذي أعرفه أن الصديق الذي مات يحب صديقه الذي يدعو له أضعاف حب صاحبه له، ولعل من رحمة الله به أن قبضه قبل صاحبه لأنَّه كان سيقضي حياة بؤس وجحيم لو غادره صديقه!

عجيبة تلك العلاقة: الصداقة!

وصدق رسول الله ﷺ: **«الأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**![1] إنه الائتلاف والاندماج الذي

(١) أخرجه البخاري (٤/١٣٣) (٣٣٣٦)، ومسلم (٤/٢٠٣١) (٢٦٣٨).

لا تستطيع تفسيره كل أجهزة الدنيا، وكل نظريات الكون!

وأعرف صديقين من جنسيتين مختلفتين، ظلّا يتسايران ويتصاحبان حتى إن كثيرًا ممن عرفهما اعتقد أنهما أخوان، ويؤكدون تشابههما في الخِلقة، مع أنَّهما مختلفان، ولكن باتت بينهما روح واحدة تمحو الفوارق وتلغي الاختلافات!

فهو المراد

نادرًا ما تسمح الحياة لك بأكثر من صديق!

ويبدو أن خانة الصديق في القلب لا تتسع إلا لشخص واحد، فإذا ما دلف إليها اثنان، فإن أحدهما يسطو على ما للآخر من مكانة وحب وتقدير، فإن لم يخرجه سلبه بعض خصائصه!

وحتى القرآن الكريم يأتي بمفردة الصديق بصيغة الإفراد، وكأن في ذلك إشارة إلى ندرة تعدد هذا المعنى في حياة الإنسان ، فيقول سبحانه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ويقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ

وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

فانظر إلى صيغ الجمع الواردة في السياق ثم يأتي الصديق بصيغة المفرد وكأنَّه لا يمكن أن يجتمع في حياة الإنسان أكثر من صديق! والله أعلم

وما أجمل وأبلغ قول الشاعر:

فإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد فعش لذاك الواحدِ

توقيع

الحياة بما فيها علبة فارغة كبيرة الحجم، ولكنَّها لا تستحق أن تكون المعادل الموضوعي لقلب أحبَّك

غراس الشرّ

إن لم تمتلك موهبة التربيت على أكتاف من حولك، فلا تمارس هواية ركل مشاعرهم! وإن فقدت قدرة الاحتضان، فمن الأفضل أن تفقد معها قدرة الصفع!

غراس الشر

كنت أكره المدرسة، وأبحث عن الأعذار حتى أغيب عنها، ولكن يبدو أن عذري ذلك اليوم لم يناسب إخوتي فأجبروني على أن أذهب إلى المدرسة، فدخلتها باكيًا! ووصلت إلى فصلي الذي كان قريبًا من باب المدرسة، وعيناي تنضحان بالدمع، جلست على الكرسي الخشبيِّ، وشهقاتي تتوالى لتخبر زملائي عن صباح متخشِّب أيضًا، فالتفتَ إليَّ الطالب الذي كان يجلس أمامي، ظننته سيربت على شهقاتي بكلمة مشجّعة، أو سيمسح دمعاتي بحرف أخويٍّ رحيم، فإذا به يصفعني بكلمة يكسر بها عيني، وقلبي في آن: لا (تبكي) يا بنت؟

لم أكن بنتًا، وإنما كنت طفلاً لا أحب المدرسة، وأزعم أن الذين يشبهونني كُثُر، هل هذه مشكلة عويصة؟ هل هذه تحتاج إلى سُخرية لاذعة؟

حتى الأطفال لديهم قهر يستطيعون أن يوجّهوه إلى بعضهم

بإتقان! فنعوذ بالله من قهر الأطفال، كما نعوذ به من قهر الرجال!

في اليوم التالي وفي الحصة الأولى دخل ذلك الطفل الذي قال لي «يا بنت»، وهو يبكي بكاء مريرًا، بصوت مرتفع، ويركض، فإذا بوالده يدخل بعده، ويحاول تهدئته، ولكنَّه يصرخ ويقول: لا أريد المدرسة! ويكمل فراره في أرجاء الفصل، حاول الأب والأستاذ أن يمسكا به، ونجحا بعد لأي[1] فأمسك الأب ابنه، ثم خرج، تَرَكَتْ صرخات ذلك الولد في الفصل شعورًا غريبًا..

في اليوم التالي، كان كرسيُّ ذلك الطالب فارغًا، فلم يحضر صاحبه للمدرسة! انتهى الأسبوع ولم أره.. ومرَّت الشهور ولم يعد!

لم يعد بعد ذلك أبدًا!

تذكرتُ كلمته التي خدش بها قلبي ذلك الصباح «لا تبكي يا بنت»، وقارنت بينها وبين حاله! علمت حينها أن هذا الكون يسير وفق قانون محكم، وأنَّه يجب عليَّ أن أحفظ لساني عن الناس، حتى لا أبتلى بشيء عيَّرتهم به!

---

(١) بعد جهد.

يجب عليَّ ألا أحرص على غرس كلمات الشرِّ في تربة حياتي، لأنَّ الذي سيجني تلك الغراس بعد أن تغدو أشجارًا طلعها كأنَّه رؤوس الشياطين هو أنا وحدي!

التاريخ الشخصي

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾!

لم يستعذ موسى _عليه السلام_ من الاستهزاء الذي اتهمه به قومه، وإنما استعاذ من المرض الذي يجعله يستحسن الاستهزاء ويمارسه! إنَّه مرض الجهل..

فالجهل هو الذي يجعلك تظن أنَّ الاستهزاء هو ممارسة جيِّدة؟ توصلك إلى أهدافك، وهو الذي يجعلك تظن أن الآخرين يحتاجون إلى استهزائك لا إلى حدبك ونصحك، وهو الذي يجعلك تظن أنك في الغد ستخلو مما أثار سخريتك بالآخرين اليوم

إذن طبقات الجهل هي التي تجعل الشخص هازئًا من

الآخرين..

وأهم قاعدة اجتماعيّة تقول «لا تسخر بأحد» لا تجعل بؤس الآخرين متنفسًا لروحك المأزومة، إن لم تمتلك موهبة التربيت على أكتاف من حولك، فلا تمارس هواية ركل مشاعرهم! وإن فقدت قدرة الاحتضان، فمن الأفضل أن تفقد معها قدرة الصفع! وإلا فالناس لا ينسون، وتاريخك الشخصي لا يرحم

وبما أنِّي جئت على «التاريخ الشخصي» فليس جميلاً أن تحوي ذاكرة الغد أشياء فعَلْتَها في ماضيك، تستحيي من ذكرها لأبنائك وأحفادك.. اجعل ماضيك صفحات مروءة، وشهامة، لتتحدث مع أبنائك في الغد بطلاقة، بل لتنام في الغد وأنت مرتاح الضمير، فليس جيدا أن تكون شيخًا في السبعين يمتلك ذاكرة مليئة بالأشياء السيئة!

دع الناس وإخفاقاتهم، فلست المسؤول عن تقويمهم، وحبل الإنقاذ -إن كنت مُصرًّا على إنقاذهم- يُلَفُّ على الأيادي لا على الأعناق، أنت يا عزيزي بسخريتك منهم تخنقهم، لا تنقذهم! يبدو أن من علّمك الإنقاذ، لم يعطك درسًا في المكان المناسب

للفِّ حبل الإنقاذ، والجهة التي يوضع فيها طوق النجاة..

إذن لا تسخر، فهناك أشياء في الحياة تبعث على السعادة والضحك، غير القلوب المحطَّمة، والنفوس الجريحة..

حتى ذلك التهكُّم الداخلي، الذي لا يشعر به أحد، استعذ بالله منه، فإنَّه من عمل الشيطان.. الوحيد الذي ينبغي أن تحتقره هو نفسك! حينما تحتوي على خلايا تنشَط في مثل هذه المواقف، وتنتشي لرؤية مخفق ما، أو عاجز ما، أو ضعيف ما!

عُدنا

أخبرني زميلي أنَّه كان مبتلى بالتدخين سنواتٍ طوالا، ثمَّ إنَّه تركه دون الحاجة إلى إبر خاصة، أو برنامج علاجي، أو مراجعة مستشفى، ترك الدخان بالعزيمة وحدها، بعد معونة الله..

صار بعد ذلك ينظر لأولئك المبتلين بالتدخين على أنَّهم منهزمون نفسيًّا، لا يستطيعون مقاومة رغباتهم الطفولية، استمرَّ هذا الشعور في نفسه، بل كان يُفصح به لبعض أصدقائه المدخنين

بين الحين والحين، وبعد مُضي سبعة أعوام على تركه للتدخين يعود صاحبنا ليمسك السيجارة من جديد، وليستنشق السمَّ مرَّة أخرى! عاد للدخان بعد أن أنقذه الله منه!

يعترف صاحبنا الصادق أن سبب هذه العودة هو أنَّه تطاول على أناس ابْتُلُوا بالتدخين، بدل أن يحمد الله على العافية، ويمدَّ يده إليهم بالنصح! فكانت عقوبته أن عاد للبلاء، بعد انقطاع سبع سنوات!

لماذا لا نقول: الحمد الله الذي عافانا مما ابتُليَ به غيرُنا؟ لماذا نصرُّ على تحويل كرامة الله لنا، ولطفه بنا إلى عنديَّات امتلكناها بمواهبنا الفريدة، وخصائصنا المميَّزة؟

الإفلاس

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من ضحك من الناس ضُحك منه، ومن عيَّر أخاه بعمل ابتلي به ولا بدَّ»[1].

---

(١) «الفروسية» لابن القيم (ص٤٠٠).

هو دَين، احرص على عدم اقتراضه، حتى لا تسدده في يوم من الأيام من صحَّتك، أو هدوء حالك، أو تمام خلقتك، فتجد نفسك وقد صرت أنت الأضحوكة، أو الأحدوثة!

وقد فقه هذا المعنى الأئمة الأوائل، فمما ينقل عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: «لو عيَّرت امرأة حُبلى بحملها، لخشيت أن أحمل!»

وهذا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: «لو سخرت من كلبٍ، لخشيت أن أكون كلبًا!»[1]

وعن عمرو بن شرحبيل ـ رحمه الله ـ «لو عيَّرت رجلا برضاع الغنم، لخشيت أن أرضعها»[2]

أما ابن سيرين فيعترف ـ رحمه الله ـ قائلاً: «عيَّرت رجلا بالإفلاس فأفلست!»[3]

وهذه رهافة بالغة، تدل على حذر شديد من هذه الآفة، وأن ابتلاء المرء بالشيء الذي سخر مِن تلبُّسِ صاحبِه به، شيء مشاهد ملاحظ منذ أزمان قديمة، فبات أصحاب النفوس المرهفة،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/٢٣١) (٢٥٥٤٦).

(٢) أخرجه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم»، الجزء السادس، (٣/٢٤٣) (٨٩٠).

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٤٧٣).

والإيمان الحيّ، يحذَرونه، ويحذِّرون منه..

وذلك جعلهم يروون مقولة ابن مسعود الشهيرة: «البلاء موكَّل بالمنطق» فاحفظ منطقك، تُحفظ من البلاء بإذن الله..

الإخفاقات

لماذا تضر أبناءك الذين لم يأتوا إلى الحياة بعد؟

أعرف شخصًا عيَّر آخر بتشوُّه يسير في خلقته ، فلم تمض السنة أو السنتان إلا وقد جاءه مولود بنفس ذلك التشوُّه!

شيء محرج، ومحرق في نفس الوقت.. هل تعتقد أن ذلك المبتلى اختار بلاءه بنفسه؟ هل تظن أن هناك ورقة استبانة جاءته في يوم من الأيام، وكانت تحتوي على عنصر يقول: هل تريد أن تبتلى بالعمى؟ أو التأتأة؟ أو الصرع؟ فأجاب بنعم، وأشار على إحدى هذه البلاءات بالموافقة! بما أن هذه الاستبانة لم تقدَّم لصاحبك الذي تسخر منه، فلماذا إذن تسخر؟

زارنا قديمًا صديق لأخي، فاستغربت كثيرًا لأنَّه كان يقطِّب

وجهه ليشاهد التلفاز، بل استبشعت في نفسي منظره!..

لا أظن الشهر مضى حتى بات ذلك التقطيب عادة لي عندما أريد أن أرى صورة أو مشهدًا أو شخصًا بعيدًا عنّي!

لاحظ: أنا لم أسخر منه، فقط استغربت واستبشعت! فكيف بالساخر، والهازئ، والمتهكِّم؟

مشكلة عندما تصير حياتك حقلا مليئًا بالعقوبات، فتغدو محاطًا بتلعثمات، وتأتآت، وإخفاقات، وتشوُّهات كنت في غنى عنها، لولا لسانك الطويل، وقلبك القاسي، وإحساسك الميِّت

عبق الجنّة

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾

ما الذي يدريك؟ لعلَّ ذلك الأعرج يدخل بعرجته الجنَّة، وأنت تدلف إلى أبواب جهنَّم بساقيك القويَّين -والعياذ بالله.

ولعلَّ ذلك الأعور، تكون عينه العوراء مفتاح قصر شامخ أعدَّه الله له في الفردوس، وتكون عيناك الصحيحتان السبب في أن تُحرم رؤية الله سبحانه!

ولعلَّ صمت صاحبك الأبكم هو سبب وصوله إلى عرصات يوم القيامة خفيفًا من الذنوب، وأنَّ طلاقةَ لسانك هي التي أنقضَتْ ظهرك، وأثقلت وزرك!

لا تسخر من شخص، فعسى أن يكون خيرًا منك..

وقد قال ذلك الذكي النقي: «لولا المصائب لوردنا القيامة مفاليس»!

أتعيِّر شخصًا بالشيء الذي أراد الله أن يرفعه به؟

يذكر ابن تيمية أن من حِكم قضاء الله على سبعين صحابيًّا بالشهادة في غزوة أحد، أنَّه سبحانه قد يكون أعدَّ لهم منزلة رفيعة في الجنَّة لن يبلغوها بأعمالهم، فقدَّر لهم الشهادة ليبلغوها..

وهنا كلام نفيس له ــرحمه اللهــ يقول فيه عن الحسين بن علي بن أبي طالب ــرضي الله عنهماــ: «وكانت شهادته مما رفع الله بها منزلته، وأعلى درجته، فإنه هو وأخوه الحسن سيدا شباب

أهل الجنة، والمنازل العالية لا تنال إلا بالبلاء، كما قال النبي ﷺ لما سُئل: أي الناس أشد بلاء فقال: **«الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»**(١)

فكان الحسن والحسين قد سبق لهما من الله تعالى ما سبق، من المنزلة العالية، ولم يكن قد حصل لهما من البلاء ما حصل لسلفهما الطيِّب، فإنهما ولدا في عز الإسلام، وتربيا في عز وكرامة، والمسلمون يعظمونهما ويكرمونهما، ومات النبي ﷺ ولم يستكملا التمييز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهما بما يُلحقهما بأهل بيتهما، كما ابتلي من كان أفضل منهما»(٢).

وقس على ذلك جميع البلاءات! وفي حديث المرأة التي كانت تُصرع خير مثال، فقد خيّرها النبي ﷺ بين أن يدعو لها بالشفاء

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٤/٦٠١) (٢٣٩٨). وقال الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٤/٥٠٤): حسن صحيح.

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٥/٣٠٢).

فتُشفى، أو تصبر ولها الجنَّة![1] إذن كثير مما نظنُّه بلاء، يحمل في طيَّاته عبق الجنَّة، وعبيرها الشذيّ.. فعلام السخرية إذن؟ ولماذا التهكُّم والشماتة؟

زحام النعم

لا تغرس الشر في فصول حياتك، أنت أحوج إلى رحمة الله ولطفه منك إلى انتقامه وعقوبته، أمسك عليك لسانك، ودع الخلق لخالقهم، وإذا رأيت مبتلًى فقل في (نفسك): **«الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلا»**[2] قلها وأنت تستشعر منَّة الله عليك، وأنَّ ما أنت فيه من عافية، ليس بكدِّك ولا تعبك، وإنَّما تفضلٌ منه سبحانه..

انظر برحمة إلى أولئك المبتلَينَ، وخفف عنهم بكلماتك الرقيقة، وبمشاعرك الجميلة..

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١١٦/٧) (٥٦٥٢)، ومسلم في «صحيحه» (١٩٩٤/٤) (٢٥٧٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٢٨١/٢) (٣٨٩٢). وقال الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٠٧٣/٢): حسن.

لا تشعرهم أنَّهم في بلاء.. بل أشعرهم أنهم في عافية تحفُّهم من كل جانب؛ فالبلاء مهما استطال وامتدَّ ليس بشيء أمام زحام النعم التي يعيش فيها العبد.

توقيع

لا تفتح نوافذ حياتك على حقول البلاء، وغابات الانتقام

علمتني زهرة الفل

الناس من حولنا هم عبد الله البردّوني بأشكال مختلفة، وبنسب متفاوتة! سمعنا ورأينا وقرأنا منهم وعنهم أشياء ليست هي أجمل ما لديهم، وليست أنقى ما يملكون من مشاعر، وليست أرقى ما عندهم من إحساس ..

علمتني زهرة الفل

في طريقي لصلاة الفجر وأنا ذاهب إلى جامع الخالدية الغربي (مسجد حنيظل) كنت أمرُّ بحوض زراعيٍّ صغير مسوَّر بشبك حديديٍّ، بجوار بيت جارنا أبي سعود ــرحمه اللهــ كان موقعه قُبالة دكانه الصغير، فما إن أقترب منه حتى يتسلل إلى صدري شذى زهرة الفلِّ العبقة!

أتذكَّر جيدًا أول مرَّة شممت فيها تلك الرائحة، وكيف أنِّي لم أدرك من أين تنبعث على وجه التحديد، مكثت ثلاثة أيام أو أكثر حتى عرفت مصدر الرائحة، وأنَّها تنبعث من تلك الورود البيضاء الصغيرة

كان هذا عام ١٤١٠هـ، أيام الربيع، لا أنسى خطواتِي كيف كانت تتباطأ وأنا أحاول أن أوْدِع صدري أكبر كميَّة من ذلك العطر الفاتن، ولا يمنعني من الوقوف أمام ذلك الحوض الصغير إلا رَجُل يتوضَّأ من حنفيَّة لصيقة بجدار المسجد، أو آخر قادم

تتهادى خطواته المتثائبة، أو إقامة للصلاة.. فإذا خلا المكان من هذه الأمور، فإني أقف ثوانيَ أعُبُّ من ذلك الشذى، ثم أمضي

الذي لفت نظري تلك الأيام أن ذلك الشذى لا ينبعث إلا وأنا ذاهب أو عائد من صلاة الفجر، أما بقيَّة الأوقات فلا ينبعث فيها!

علمتُ من منطوق العطر أن وقت الفجر هو الوقت المناسب لزهرة الفلِّ حتى تتضوَّع، وعلمتُ من مفهومه أن لكل إنسان – كذلك– ظرفه المناسب حتى يعطيك الأجمل فلا تطالبني بما تراه مناسبًا، في وقت قد يكون غير مناسبٍ!

قهقهة الجاحظ

لمحت من تصرُّف لأخي الأكبر أنَّه يقدِّر القراءة، ويشجِّع عليها، فأضمرت في نفسي أن أُطْلعه على أي كتاب أشتريه مستقبلاً، وسرعان ما تحقق لي ذلك، فقد تجمَّع عندي مبلغ يصلح لزيارة «مكتبة الفلاح»، فاشتريت سلسلة قصصية صغيرة

الحجم مستلَّة من كتاب البخلاء للجاحظ، ذات رسوم جميلة

وما إن عدت بها إلى البيت وكانت عشرة أجزاء تقريبًا، حتى دخلت مباشرة إلى المجلس حيث كان يجلس أخي، وقفت أمامه وبيدي الكتب لأريه إيَّاها، فحصل ما لم أكن أتوقَّعه، فعل شيئًا لم يفعله قبل ذلك ولا بعده، لا معي ولا مع غيري! لقد نَهَرني وطردني من المجلس دون أن أعلم السبب !! شعرت بقدر لا بأس به من الخزي، وخرجت من المجلس وكأني أسمع قهقهة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، متهكمًا ساخرًا!

إلى هذه اللحظة لا أدري سبب ذلك التصرُّف الغريب، ولكن وردة الفل علمتني أن شذى أخي الطيِّب لم يتضوَّع في تلك الساعة لأسباب لا أعلمها، كما أني لا أعلم سبب عدم تضوَّع وردة الفل وقت العصر مثلاً!

لعلَّه كان يعاني صداعًا ما، أو أنَّ أحدهم نقل إليه كلامًا سيئا عنِّي، أو أنَّ خبرًا سيئًا وصله لساعته   لا أعلم   ولكن يجب أن أعلم أنَّ أخلاقه النبيلة التي تتضوَّع دائمًا بالخير لم تفعل ذلك تلك اللحظة

أخطأت وقتها، وكنت أهلاً للخطأ إذ إني كنت في السادسة الابتدائية، وكان خطئي أني قررت ألَّا أعرض اي كتاب على أخي بعد ذلك أبدًا.. ظننت أنَّ طرده لطفل يعرض عليه كتابا اشتراه هو الأصل فيه، وكنت كمن قلع شجرة الفل في وقت العصر لأنه مرَّ بجوارها فلم تُهْدِه شذاها!مكتبة الرمحي احمد

كما أن هناك أوقاتًا لا تنبعث فيها رائحة زهرة الفل، فهناك ظروف ليست جيِّدة للبعض، وذلك يجعلهم لا يقابلونك بأجمل ما لديهم، لا تجعل تلك الظروف هي الأصل، ولا تجعل برودهم تجاهلك هو القاعدة، بل انتظر الوقت المناسب ثم تمتَّع بشذى ما لديهم من خير وطيبة

صداع الشقيقة

كان وقتًا ممتعًا ذلك الذي قضيته مع ضيفي الذي زارني في بيتي بحي العريجا بالرياض، كان هذا عام ١٤٢٠هـ تقريبًا، تناقشنا فيه، وتجاذبنا أطراف الحديث حول أمور متعددة، واستمتعنا

بالأحاديث الطريفة والظريفة، ثم لمَّا جاء وقت الطعام، وانتهيت من إعداد سفرة العشاء، دخلت عليه وطلبت منه تشريفي على السفرة، فلم يرد عليَّ بكلمة، نظرت إليه فإذا بيده قابضة على مقدمة رأسه، استحثثته مرَّة أخرى لينهض فلم ينبس ببنت شفة، وإنما أشار بيده أنْ: ابدأ أنت بالأكل!

استغربت لحظتها، وسألته: هل تعاني صداعًا؟ فأشار برأسه أنْ نعم..

استغربت كثيرًا لهذا الصداع الذي يحول بينه وبين أن ينهض للطعام، أو أن يجاملني بكلمة لطيفة

علمت بعدها أنَّ ضيفي مصاب بصداع الشقيقة المزمن، وأنَّه قد زاره في تلك الساعة بالذات، وعلمت بعد ذلك بسنوات أن ألم صداع الشقيقة من أشدِّ خمسة آلام قد يصاب بها الإنسان! ورأيت تسجيلاً لمصاب بهذا المرض وهو يعاني آلامه الفظيعة، فعذرت ضيفي على عدم كلامه، بل استغربت لماذا لم يصرخ لشدَّة ما كان يعاني..

إذن لحظة ألم شخص ما، هي من اللحظات التي لا تنتظر أن

تتضوّع فيها زهرته الشذية

هناك آلام نعلم بها، وهناك آلام أخرى تبرّح بصاحبها، لا ندركها ولا نعلم عنها، بعضها حسِّي، وأكثرها نفسي ومعنوي

كيمياء الظروف المختلفة

يذكر صاحب كتاب «الرائحة: أبجديَّة الإغواء الغامضة» أن العطر الجيِّد له ثلاثة مستويات، أولها: اللفتة الكبرى، وهو لحظة عنفوان الشذى وحدَّته، وثانيها: صميم العطر، وهو مستوى يأتي بعد تلك اللفتة يتحوَّل فيه العطر إلى العُمْق والدفء، وثالثها: أجواء ما بعد الرائحة، وهي مرحلة تستقر فيها الرائحة وتصبح أكثر هدوءًا.. شذى يتضوّع ببرودة!

بل ويذكر في كتابه أن الرائحة يستحيل أن تتكرر بذاتها، وما أدركه أنا عن عطر ما، ليس ما تدركه أنت فأنا استنشقت العطر والمكان تغمره رائحة قهوة، وشجرة البرتقال التي بالخارج يملأ شذاها المنزل، وبجواري صديقي الذي يضع عطرًا آخر، وهكذا،

وذلك يجعل رائحة ذلك العطر تتنازعها كيمياءات عطريَّة مختلفة، فأدركه أنا إدراكًا يختلف عن إدراكك له وأنت تستنشقه في مكان يمتلئ برائحة سائل تنظيف الزجاج مثلاً!

ما أريد قوله هو أن طبائع البشر غنيَّة بالاختلافات والتقلبات والمستويات التي تجعل كيمياء الروائح بدائيَّة إذا قيست إليها!

هناك عدَّة عوامل تجعل ابتسامة صاحبك في هذه اللحظة سحرًا جميلاً، وعوامل أخرى تجعل نفس الابتسامة في لحظة أخرى باهتة رماديَّة اللون!

وهناك مستويات نفسيَّة عندك، وعند الآخر أيضًا تخفت وترتفع وتستقر معها الانفعالات، وانعكاساتها

من الصعب أن نحكم على البشر ونحن نخوض هذه البحيرة الكيميائية التي تتغيَّر فيها المركبات والعناصر وفق الظروف والأحوال والأمزجة والنفسيات!

إذن أقترح أن نستغني عن ٣٠٪ من حدَّة مواقفنا، فقد يدفعنا إليها ظرف، أو حال، أو مُدخل غير موضوعيٍّ !

في عام ١٤٠٥هـ وكنت في الثانية الابتدائية شعرت بامتعاض وكره لجدِّي (خال أمِّي)، لأنَّه رفع صوته عليَّ بطريقة مُهينة. كان الوقت عصرًا، وجدران ذلك المجلس القديم كأنِّي أراها الآن أمامي، متخمة بالتعرُّجات، وإذا مررت بيدك عليها تشعر كأنَّها حوادّ مسامير غير منتظمة! لا أدري لماذا ركَّزت الآن على الجدار! وتركت بقيَّة أيقونات الماضي التي يزخر بها ذلك المكان!

كان وجه جدِّي مكفهرًّا، بل حتى صوته بات يحمل ملامح ذلك الوجه المكفهر!

خرجت من عنده وأنا أشعر بالإهانة!

صرت بعدها كلما سمعت حديثًا عن جميل أخلاقه، أسمع صوتًا في داخلي يقول لي: هو ليس كما يزعمون هم لا يعرفون حقيقته!

والآن بعد مُضي ثلاثين سنة على تلك الحادثة أقول: لقد ظلمت جدِّي الحبيب ظلمًا كبيرًا!

هل تعلم أخي القارئ أن جدِّي في تلك اللحظات كان يعاني الألم الجسدي والمعنوي؟

لقد كان يعاني من آلام السرطان المبرِّحة! التي مات بسببها في ذلك الشهر!

إنه كان يحسُّ بألم فظيع جعل صرخة ألمه تغلِّف نفسها بانزعاج من طفل! أو أن مضاعفات المرض هدَّت نفسيَّته! المرض جعل زهرته طيبة النشر بلا رائحة في تلك اللحظة بالذات!

نعم، أنا –إذ كنت طفلاً– لم أميِّز هذه التفاصيل.. أما الآن فأنا أدركها تمامًا، وأعذره

كثيرة تلك المواقف التي نتحوَّل تحت ضغطها إلى أطفال في مشاعرنا وإحساسنا، فلنبتعد عن ضغط المواقف، ولنتأمَّل الحادثة من بُعد، لعلَّ شيئًا من النضج يدركنا

غدًا سوف تلعنك الذكريات

تذمرت من كثرة ترداد صاحبي لاسم الشاعر اليمني الشهير «عبد الله البردُّوني»، فصارحته: هذا الشاعر دون مستوى شهرته بكثير، فأرجوك، أرحني من ترداد اسمه..

فنظر إليَّ بتحدٍّ وقال: اسمع إذن:

لماذا لي الجوع والقصف لك؟ يناشدني الفقر أن أسألك

واغرس حقلي فتجنيه انت وتُسكر من عرقي منجلك؟

لماذا وفي قبضتيك الكنوز تمدُّ إلى لقمتي أنملك؟

لماذا تسود على شقوتي أجب عن سؤالي وإن أخجلك؟

ولو لم تجب فسكوت الجواب ضجيج يردد: ما أنذلك

لماذا تدوس حشاي الجريح وفيه الحنان الذي دلَّلك؟

غدًا سوف تلعنك الذكريات ويلعن ماضيك مستقبلك

ثم أردف بذكر مقطوعات من شعر البردُّوني كل مقطوعة موجة جمال تنسي التي قبلها! فجعلني أرجوه أن يتوقَّف، فقد اقتنعت بمدى شاعريَّة هذا القلب الجريح! بل تيقنت أنَّ شهرته دون ما يستحق..

يبدو أنِّي قرأت للبردُّوني نصوصًا لم تكن هي الأجمل، أو أنِّي

قرأت له نصوصًا جميلة وأنا في حالة لم تكن الأجمل!

الناس من حولنا هم عبد الله البردُّوني بأشكال مختلفة، وبنسب متفاوتة! سمعنا ورأينا وقرأنا منهم وعنهم أشياء ليست هي أجمل ما لديهم، وليست أنقى ما يملكون من مشاعر، وليست أرقى ما عندهم من إحساس

إذن فلنتخيَّل أنَّهم أجمل مما نظن لنحبَّهم، ونتجاوز عن سيئاتهم، فحتى لو خسرنا الحقيقة بهذا التخيُّل، فلن نخسر الإنسان الجميل الذي داخلنا !

معركة القوائم

نحن ننسى!

ننسى بسرعة مخيفة المواقف المليئة بالنخوة، التي يمد فيها الآخر يده ليحُولَ بيننا وبين سقوط في حفرة من حفر الحياة!

ولأننا ننسى فقد قال لنا ربُّنا العليم بذلك النسيان: ﴿وَلَا تَنسَوُا

حتى نستثمر النسيان في محو المشاهد المؤملة من حياتنا، ولكن لا نسمح له أن يمحو اللحظات الجميلة، والذكريات الرائعة!

النسيان نعمة، ولكن هذا ضمن حدوده الإيجابيَّة، فإذا ما تجاوزها بات نقمة ينبغي الحذر منها والبعد عنها..

أتحدَّث عن نفسي، بعض الأحيان أقرر أن أنتزع اسمًا من قائمة الأصدقاء، لأودعه في قائمة (أناس عرفتهم في يوم ما) وبعد دقائق من التأمُّل أكتشف أنَّه من المفترض أن تكون عندي قائمة (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وأن أضع ذلك الاسم في أعلاها!

وثِقَ بي يوم أن شكَّ فيَّ الناس

وابتسم لي يوم أن اكفهرَّ لي الناس

واحتضنني يوم أن ابتعد عنِّي الناس

لماذا نسيته بهذه السرعة؟ لماذا جعلت موقفًا واحدًا يغلب جيوش الشهامة والنخوة التي غمرني بها؟

وإذا كنت قد توقفت عن تنفيذ قراري في اللحظة الأخيرة، فكم أولئك الذين لم أتوقف معهم عن تنفيذ مثل هذ القرار؟ فباتوا الآن خيالات ماضٍ، وكان المفترض أن أبني لهم صروحًا في نفسي لا تحول ولا تزول

الإنسان هو أعظم كنز تملكه، فإذا ظفرت بكنز بشري، فلا تتعامل معه بحماقة، نعم قد تبرد العلاقة، دعها تبرد بالطريقة التي تعجبها، ولكن أرجوك لا تحرقها.. فقد تندم كثيرًا عندما ترى هشيم قلب كان ينبض بحبِّك !!

رشّة عطر

لن يخبرك كل الناس بأسباب تصرفاتهم الغريبة، ولكن بما أنَّك متيقن أن شذى الطيبة قد تضوَّع منهم ذات يوم، فاجعله هو أصل أخلاقهم، واجعل ذلك التصرُّف الغريب هو بسبب أمر طارئ لا تعلمه، ولا يلزم أن تعلمه! تعامل معه كما تعاملتُ أنا مع شذى زهرة الفل الذي لم يتضوَّع في أوقات كثيرة من أيام طفولتي

ومع ذلك فقد بقيت أستنشقه في فجر كل يوم من أيام الربيع

توقيع

ارفع الأشخاص الذين أحبّوك بصدق، وبذلوا لك بكرم بعيدًا عن متناول مشاعرك الطفولية..

معركة ذات المجالس

صارت الآراء كملابس المناسبات، ووجهاتُ النظر مثل (الإكسسوارات) التكميلية، التي تُلبس حتى تعطي شيئاً من التناسب للمظهر العام، وليس لأنها في ذاتها جميلة أو جيِّدة!

معركة ذات المجالس

اشتد النقاش بيني وبين صاحبي، وكانت خطوط آرائنا متوازية، تكاد لا تتقاطع في أي جزئية.. فأتيت بأدلتي، وأتى بأدلَّته، وأتيت بتعليلاتي، وأتى بتعليلاته، وانتهينا من حوارنا وقد تمسَّك كل منَّا برأيه دون أدنى تعديل.. إلى هنا الأمر طبيعي، ويحدث كثيرًا..

الذي جعلني أتفاجأ أنني جلست في مجلس بعد شهر أو أكثر، فإذا بحوار يدور بين صاحبي وشخص آخر في ذلك المجلس، والغريب أنَّه حول نفس القضيَّة التي كانت بيني وبينه، ولكن الأغرب هو أنَّ صاحبي بات في ذلك المجلس متبنِيًا رأيي الذي كان يرفضه تمامًا، وصارت أدلَّتي بالأمس، هي أدلَّته اليوم! وأصحبت التعليلاتُ التي رآها واهية، تعليلاتٍ قويَّة، لها حظٌّ من النظر، ويستخدمها اليوم في دحر رأي صاحبه.. وبنفس طريقته التهكمية في رفض رأيي والإشادة برأيه، صار اليوم يرد رأيه السابق، ويشيد برأيي الذي بات يعتقده!

والسؤال: هل شهر من الزمان كاف حتى يحدث هذا التغيُّر الجذري؟ وحتى ينسى الرأي الذي كان يتبنَّاه بالأمس؟ وحتى صار يرى جزئيات ذلك الرأي تثير الضحك، مع أنَّه كان يقول بها قبل أسابيع!

في الحقيقة أني بدأت -مع كثرة الأمثلة والشواهد- أميل إلى أننا لا نخوض معارك آراء، وإنَّما معارك مجالس! وأنَّ مزاج المجلس، ونوعية من فيه، وعدد المصفقين لنا؛ كل هذا يجعلنا نقول بهذا الرأي اليوم، ثم نستهجنه في الغد..

أفكار أم أقراص!

صارت الآراء كملابس المناسبات، ووجهاتُ النظر مثل (الإكسسوارات) التكميلية، التي تُلبس حتى تعطي شيئا من التناسب للمظهر العام، وليس لأنها في ذاتها جميلة أو جيِّدة!

فالمرأة تلبس هذا القرط الأخضر لا لأنَّه أجمل من ذلك الأزرق في ذاته، بل لأنَّه يناسب البلوفر الأخضر، والحقيبة الخضراء..

وهكذا ترى الشخص يقول بهذا الرأي لا لأنَّه تأمله كثيرًا، وسهر معه الليالي ذوات العدد، لا؛ بل لأنَّه يُظهره في ذلك المجلس أكثر انفتاحًا، أو تحضُّرًا، أو ثقافة، أو جُرأة.

صارت أفكارنا مثل أقراص المسكِّن، نستخدمها عند الحاجة، ونستغني عنها فيما عدا ذلك! وصرتَ تبحث فيما يقوله الناس عن قول تلمح فيه آثار التأمُّل، وغبار الكتب، وتشعر أنَّه بات شبيهًا بصاحبه لطول تصاحبهما، فلا تجد شيئا من ذلك..

قضايا العقل

يقال إنَّ سيبويه ناظر الكسائي في مسألة تسمَّى «الزنبورية» فكانت تلك المناظرة السبب في موت سيبويه!

الخليل بن أحمد يغوص في تأمُّل عميق وهو في المسجد، ليصل إلى طريقة لا تجعل البائع يتمكن من غش الجارية، فيصطدم بأسطوانة في المسجد فيموت..

يمكث الجاحظ الساعات في المكتبة قارئًا، مطوِّرًا ذاته، فتهتز

الرفوف، وتتساقط الكتب عليه ويموت!

قضايا العقل والفكر تستحق أن يُضحّى لأجلها، وأن يخسر الإنسان ماله، واستقراره، ومنصبه، وراحته، بل وحريّته لأجلها، وهناك أناس يغيِّرون آراءهم بحسب درجة حرارة المجلس، ويغيِّرونها لأجل قهقهات ستنتشر في أثناء الحوار، ويغيِّرونها لأجل إغاظة شخص غير محبوب!

سر شكسبير

مسكينة تلك الآراء التي نزعم أننا نؤمن بها، ونحن في الحقيقة لا نؤمن ولا يحزنون.. القضية هي أنَّ مورِّثاتنا القبليَّة انتقلت من:

وأحيــانًا علـــى بكـــر أخينـــا إذا مـــا لم نجـــد إلا أخـــانا

و

هـــم يَنـــذِرون دمــــي، وأنـــ ـــذر إن لقِيـــتُ بأن أشُـــدًّا

وصارت تظهر على شكل: هذه وجهة نظري، وهذا رأيي، وهذا ما أدين الله به!

وكم من باطل سوَّقناه، ومن عقيدة عبثنا بها في قلوب من حولنا بحجَّة «هذا ما أدين الله به»، وخمس دقائق لتأمُّل معنى هذه الكلمة المخيفة كفيلةٌ بأن تسكتنا عن هذرنا، وتنفُّجنا[1] الذي ليس وراءه إلا الخواء..

وكثيرًا ما نزعم أن هذا الرأي هو رأينا، والحقيقة أنَّه ليس رأينا، وإنَّما هو ما نشأنا عليه، أو هو أوَّل رأي في هذه المسألة نعرفه، أو أنَّ شخصيَّة مميَّزة لدينا أعلنت أن هذا الرأي رأيها.

وأتذكر في هذا السياق مقولة لناقد غربي يقول: الإنجليز يعتقدون أن شكسبير أعظم أديب في الكون، لا لأنَّه كذلك، بل لأنَّ رؤوسهم تحتفظ بقدر كبير من نصوصه!

إذن هذا هو سر عظمة شكسبير لدى الإنجليز! هو عظيم لأنَّهم عرفوه منذ الصغر، لا لأنَّه صاحب أدب يستحق الخلود..

مشكلةٌ إذا كان ما نعلمه هو الصواب بسبب أننا نعلمه!

تمامًا كما أن من المشاكل الأدبيَّة اعتقادَ التلميذ أن كلام شيخه زيدٍ هو الصواب بسبب أنَّه شيخه، ولو كان شيخه عمرًا

(١) التنفّج: افتخار الشخص بما ليس عنده.

لكان الحق مع عمرو يدور معه حيث دار..

يجب أن نفرِّق بين آرائنا، وآراء الذين نحبُّهم! فليس من لوازم المحبَّة استنساخ المعتقد، والتشبُّه بالآخرين في وجهات نظرهم..

فكما أننا نتفهَّم أن يحبَّ أبي الأكلة التي أكرهها، وتميل زوجتي لذلك اللون الذي لا يستهويني، فيجب أن نتفهم أن ذلك يحدث في الآراء ووجهات النظر، بل التقليد في مثل هذه الأمور مصيبة، لأنَّك تعبث بصفاء آلة التفكير لديك، ستغدو فيما تستقبل من أيام تائهًا، لا تدري ما الذي تؤمن به.. ودائمًا تصمت لترى موجة المجلس أين تسير، لتحدد ما تؤمن به وما لا تؤمن به في تلك الليلة، ثم تخلع معتقداتك عند الباب قبل المغادرة!

ومما يُذكر أن رئيس إحدى الدول سأل مفتونًا يعتقده مفتيًا عن شيء أهو حرام أم حلال؟ فنظر ذلك المفتون، ثم عبس وبسر، ثم قال: أتريده حرامًا أم حلالًا؟

ويصح في مثل هذا قولُ الأول:

ولو أنَّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنَّسوا ... مُحيَّاه بالأطماع حتى تجهَّما

الجعجعة

نسيت أن أخبرك أننا جميعًا في هذا النادي الغريب، يندر أن تجد الرجل الموضوعي، الذي تهمُّه الحقيقة المجرَّدة بغض النظر عمَّا سيقال عنه، وكيف ستكون نظرة الآخرين له..

الشيخ عبد الرحمن المعلمي ـرحمه اللهـ يسبر أغوار النفس، ويأتي بغرائب وعجائب، وفي كتبه مواضع كثيرة يفضح فيها أهواء وأدواء النفوس، يقول ـرحمه اللهـ في رفع الاشتباه: «وقد تهوى القول لأنك ترى ذهابك إليه، وانتصارك له يكسبك جاهًا وقبولاً وشهرة، كأنْ يكون موافقًا لهوى الأمراء والأغنياء والعامة، وهذا من أضر الأهواء وأهدمها للدين».

ويقول: «وقد تهوى القول لمناسبة ما بينك وبين قائله، كأنْ تكون حنبليًّا فتهوى قول مالك إن كنت مدنيًّا، أو قول أبي حنيفة إن كنت فارسيًّا، أو قول الشافعي إن كنت قرشيًّا، حتى لقد نجد المرأة في عصرنا تميل إلى قول يروى عن عائشة»!.

ويقول: «وقد تهواه لأن في ظهور صحته نقصًا على من ينافسك من أقرانك ومعاصريك».

تأمَّل هذه الأخيرة، لتعلم سر الكثير من الجعجعة التي امتلأت بها مجالسنا، والله المستعان..

البطولة

أتدري ما البطولة؟ البطولة هي ألَّا تكذب على نفسك، قد تضطرك الحياة، أو يجبرك موقفٌ ما على مراوغة، أو أن تكذب، وهذا بلا شك خطأ، ولكن لن تضطرك الحياة ولا المواقف أن تكذب على نفسك وأنت وحدك في غرفة بين جدران أربعة، الانهزام التام هو ألَّا تستطيع أن تصارح نفسك بحقيقتها.. هنا أنت في خطر حقيقي!

للإنسان عينان يرى بإحداهما من حوله، وأخرى يرى بها ذاته، فإن فقدت الأولى لأي سبب، فمن المستحسن أن تحافظ على الثانية، لأنك إن فقدتها فهذا لا يعني أن الله سيعوِّضك عنهما الجنة، بل يعني أنَّك ستظل بقيَّة حياتك تتردَّى في مهاوي العماء..

كن صادقًا مع نفسك وأخبرها أنَّ هذا الرأي قلت به لأجل

أنّه مريح، أو لأجل أنّك زعمت -تحت إلحاح موقف- إيمانك به، ثم لم تستطع -بسبب ضغط الموقف- أن تتراجع عنه..

لا تكذب على نفسك وتزعم لها أنّك تؤمن بهذا القول الإيمان الكامل.. وأنت في الحقيقة لم تعرفه إلا قبل خمس دقائق بالضبط! لا تخطئ في حق نفسك، وتملأْها بالمزاعم..

موسى _عليه السلام_ يعترف بشجاعة قلَّ نظيرها فيقول: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، إذن موسى يخاف، ويعترف بذلك..

مشكلتنا أننا نخاف، ونجبن، ونكذب، ونصرّح بآراء؛ لا لأننا نؤمن بها، بل لأنَّ الجوَّ العام للمجلس يجعل من الجميل أن نؤمن بها! كل هذا يحدث، ولكن الجريمة في حق الذات تكمن عندما نكذب على هذه الذات ونريد أن نقنعها أننا بالفعل نؤمن بتلك الآراء، وبأننا شجعان، وصادقون.. يا أخي اصدُق ولو في هذه، كن شجاعًا في اعترافك بالخوف، كن مثل موسى وقل: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾

فقه النفس

كنت مع اثنين من أعز الأصدقاء، نتجاذب أطراف الحديث على شاطئ حقل الجميل، والشمس تهمُّ بالغروب، فتفرَّع بنا الحديث إلى أن بلغنا شيئا من مسائل الاعتقاد، فصمت صاحبي عن الكلام، فأخذت أداوره حتى يتحدَّث فثبت على صمته، ثم قال لي: يقول الشافعي ـرضي الله عنهـ «أن أناظر في مسألة يُقال لي إن أخطأتُ فيها: أخطأتَ، أحبُّ إليَّ من أن أناظر في مسألة يُقال لي إن أخطأتُ فيها: كفرتَ»!

كان صاحبي -رحمه الله تعالى- فقيه النفس، لم أستطع استجراره لميدان حواريٍّ يخشى فيه من عثرة لسان قد توصله إلى أن يأثم من حيث أراد أن يغنم!

للمناظرة لذة خاصة، وسَكْرة قد تُنسي المتحدِّث ألف باء التقوى، وتجعل صوت الضمير يخفت في النفس، فتغدو الغَلَبة الآنيَّة مقصدًا قد يتنازل لأجله عن أشياء من المكتسبات القديمة التي تلقاها من النبع القرآني، أو الجدول النبوي شَعَرَ أو لم يشعر..

لقد كفرت!

مما ينبغي أن ينتبه له المحاور، أنَّه ليس من ضمن الثلاثة الذين رُفع عنهم قلم التكليف، وعلى هذا فلا يُطلق للسانه العِنان حتى يقول ما يشاء..

ليس الحوار فقط الذي يُنسي البعضَ أساسياته الإيمانيَّة، بل مجرَّد إضحاك الآخرين قد يجعل البعض يقول كلامًا هو للكفر أقرب منه للإيمان، وإن كان لا يريد نصَّ كلامه، إلا أنَّ فكرة الرد السريع، وأن يذكره الآخرون بأنَّه صاحب بديهة حاضرة، ونكتة لطيفة؛ قد تجعله يقول قولاً إدًّا، تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخرُّ الجبال هدًّا..

مدَّ رجلٌ لرجلٍ اسمه يحيي صحيفة في مجلس أبي حنيفة وقال هازئًا:

يا يحيي خذ الكتاب بقوَّة!

فقال أبو حنيفة: يا هذا، لقد كفرت!

يقول الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ: قلت لبِشْر المرِّيسي:

جحجما تقول في رجل قُتل، وله أولياء صغار وكبار، هل للأكابر أن يَقتلوا دون الأصاغر؟ فقال: لا! فقلت له: فقد قتل الحسن بن علي بن أبي طالب ابن ملجم، ولعليٍّ أولادٌ صغار؟ فقال: (أخطأ الحسن بن علي)! فقلت له: أمَا كان جوابٌ أحسن من هذا اللفظ؟ ! قال: وهجرته من يومئذ!

كلمة (أخطأ الحسن بن علي) تجعل الشافعي يهجر بِشْرًا! ويغضب من هذا النَّزَق[1] الحواري الذي يجعله يقول الكلام في الناس بلا زمام أو خطام.

ازدحام الأدلّة، وغلواء الكلمة، والحماس الذي تجلبه الجماهير المحتشدة، ليس مما يجعل الشافعي يتغاضى عن شيء من المبالغة الكلاميّة..

صفعني

كنت في مجلس، ودار الحديث فيه عن: هل النبي ﷺ يعلم كل

---

(١) النّزق هو: الطيش.

شيء في (اللغة العربية)؟ أم تغيب عنه معرفة بعض الأمور؟ فمن قال: يعلم كل شيء في اللغة ذكر أنَّ اللغة العربية هي لسانه الذي نزل به القرآن المعجز عليه، وأنَّه لا يُتصوَّر عدم إحاطته بالمعجزة التي أُرسل بها، واستدل بمقولة الشافعي الشهيرة: «لا يحيط باللغة إلا نبي»، فالنبيُّ إذن يحيط باللغة..

ومن قال بالقول الآخر، قال: لا يُشترط أن يعرف النبي ﷺ كل كلمة في اللغة، ولكن هو ولا شك يعلم كل كلمة في القرآن، وكل كلام يحتاج إليه في الدعوة إلى الله، وردَّ قول الشافعي بأنَّه لم يثبت عنه، وبأنَّه لو ثبت فلا دليل عليه، والشافعي غير معصوم.. ثم كما أنَّ النبي ﷺ قد لا يحيط علمًا ببعض التفاصيل الحياتيَّة، وبعض أسماء الأنبياء، فقد لا يحيط بشيء من اللغة التي لا يحتاج إليها في الدعوة وتبليغ الرسالة..

أخذ وأعطى مَنْ في المجلس حول هذا الأمر، ثم انفضّ المجلس، وفينا شخص لم يتكلَّم بكلمة، مع أنَّه أحد فرسان الحديث، وكأنني سألته عن سبب عدم مشاركته، فقال: يا أخي الحديث عن النبي ﷺ صعب! لا أدري كيف تستطيعون الحديث عنه بهذه السهولة!

قالها، وكأنَّه صفعني..

رفع الراية

كثير من الحوارات ليس سببها أنَّ الكلام المذكور لا يمكن فهمه، بل لأنَّه لم يسبق علمه! فتراه يقول عن الكلام المطروح: معذرة لم أقتنع، ولو صدق مع نفسه لقال: معذرة؛ أوَّل مرة أسمع هذا الكلام..

تجري حوارات كثيرة وأنا حاضر؛ إما مشارك أو مستمع، فكثيرًا ما ألحظ أن الرافض للفكرة حديث عهد بها، ربما لم يسمعها قبل ذلك الحوار في حياته، أعلم ذلك بكلمة مهمة تدور حولها تلك الفكرة لم ينطقها على وجهها، أو بتناقض واضح حول اقتناعه أو عدم اقتناعه بها، أو لأمر في سياق الحوار يشي بجهله بذلك الأمر، لا بعدم اقتناعه به..

وأنا أسائل نفسي: لماذا لا يتوقف عن الحوار، ويعود لمزيد من الاطلاع حول الأفكار المطروحة؟ مع أن المفترض ألا يدخل في

حوار حول موضوع ليس لديه إلمام كاف به، بل لماذا الحوار أصلا؟ لماذا لا نكتفي بالأحاديث الوديَّة في مجالسنا، والقصص الجميلة، والنكات البريئة؟ لماذا بات الحوار هو المكوِّن الرئيس لمجالسنا، وبات ثقافة نتداولها بعُجَرها وبُجَرها؟ دون اللياقة الكافية التي تؤهلنا أن نعترف بخطأ جدالي، وتأجيل نصر حواري، وتنازل عن رأي فطير لم نتأمّله جيّداً؟

يجب علينا أن نعلن انتهاء معركة ذات المجالس هذه، وأن نرفع راية الاستسلام للحق، وأن نحاول أن نثبت مميِّزاتنا بشيء آخر غير العبث بقناعات الآخرين، والتهاون بقول كلام لم نتصوَّره جيدًا، فضلا عن أن نؤمن به.. يجب علينا أن نكبر عن هذه الترَّهات؟

توقيع

الرأي ليس معطفاً ترتديه وتنزعه وفق درجة الحرارة؟ وإنما فكرة تغوص في جميع خلايا جسدك، فتحمل كلماتك لونها، وعمقها، وتاريخها..

فاكهة الشوك

هناك أشخاص بمصاحبتك لهم تخسر أكثر مما تربح! تتأذى أكثر من كونك تستمتع، تنغزك أشواك ألسنتهم، فتقضي زمنًا من عمرك وأنت تحاول نزع تلك الأشواك من أعماق فؤادك..

فاكهة الشوك

سافرت إلى مدينة الطائف مع مجموعة من الأصدقاء أيام كنت طالبًا في الجامعة، وفي يوم من أيام تلك الرحلة الجميلة أُحضرتْ لنا فاكهة «البرشومي» التي تشتهر بها مدينة الطائف، فأكلنا منها، وتلذذنا بطعمها الشهي، وبعد أن انتهت مرحلة الاستلذاذ، بدأَتْ مرحلة أخرى لم أكن على دراية مسبقة بها، ألا وهي مرحلة نزع الأشواك العالقة في الأصابع! تمنيتُ -وأنا أستخرج الأشواك الشفافة التي لا تكاد ترى- أني لم آكل تلك الفاكهة، لما سبّبته لي من أذى..

هناك أشخاص بمصاحبتك لهم تخسر أكثر مما تربح! تتأذى أكثر من كونك تستمتع، تنغزك أشواك ألسنتهم، فتقضي زمنًا من عمرك وأنت تحاول نزع تلك الأشواك من أعماق فؤادك..

ليس شرطًا أن يكون الشرُّ قد أحكم سيطرته عليهم، أو أنّهم شياطين في هيئة آدميين، لا؛ بل فيهم من الخير الكثير،

ولأحاديثهم جمال خاص، ولكنَّهم يتمتَّعون بالقدرة على المساس بالأمور التي يزعجك أن تُمس، بل إن بعضهم لديه موهبة خاصة في استفزازك وأنت في أشد حالاتك هدوءًا واتزانًا!

فإن كنت طالباً في الجامعة مثلاً، فإن أحاديثهم تنصبُّ على قضية المتعثرين في الدراسة، وأهمية رفع المعدَّل، وكيف أن الإهمال في الدراسة قد يسبب للمرء عقبات مستقبلية، وإن كنت قد قررت البدء بمشروع معيَّن، فإن أحاديثهم تكون عن الإخفاق في المشاريع، وأن السوق غير محفِّزة للمشاريع الطموحة! وإن استدنت من أحدهم مبلغًا -مهما قلَّ- تبدأ أحاديثه تنحى باتجاه الشؤون المالية، وكيف أنَّ الأوضاع باتت صعبة! وكلما حاولت أن تستعيذ بالله من الشيطان، ظهر الشيطان بذاته في كلامهم، وإذا ما قلت: لعلِّي أتوهم أنهم يقصدونني، جاؤوا بالبراهين التي تؤكد أنَّك المقصود بأحاديثهم التلميحية!

هم لا يريدون النصح والتوجيه، فللنصح طريقة، وللتوجيه ملمس ناعم لا يؤذي هم يريدون أن يجعلوا من خصوصيَّاتك (كرة تنس) يتبادلونها بينهم، ويستخدمون سيرتك الذاتية لإزجاء

أوقات فراغهم، ويعدون إخفاقاتك مكانًا جيِّدًا لغرس شتلات البرشومي..

يجدون دائمًا في شؤونك الخاصة مساحة لا بأس بها تصلح لأن يمارسوا فيها رياضة الجولف، وتعلُّم مهارات لعبة المبارزة!

الأرض بحجمها الشاسع لا تتسع لهم، ولكن مشكلة من مشاكلك تستطيع أن تحتويهم، هم ومن يعزُّ عليهم!

لديهم عُقَد متنوّعة، ومن أغربها أنَّك الشخص الذي تستطيع إخراج سقراط الذي داخلهم، وبلورة الفلسفة الأفلاطونية التي في جماجمهم، ويمكنك تحويل ملامحهم إلى ملامح أرسطو وهم ينثرون التوجيهات من حولك!

حبات الملح

أحد أصدقاء الجامعة، كان عذبًا كالماء، هادئًا كالنسيم، ولكنّه كان ذا شخصيَّة تُكثر من الرموز في الكلام، تحتوي كل جملة من

أحاديثه على ثلاث نقاط في آخرها، وعليك أن تملأها بما يتساوق ونبرته المنخفضة، أو حركة يديه الغريبة..

كنت بعض الأحيان إذا ما انصرفت من لقاء جمعني به، أعود إلى غرفتي مغضبًا، وأشرع في كتابة رسالة له في دفتري الخاص، أتسخَّط فيها من كلمته التي أظنُّه يقصدني بها، أو عبارته التي أجزم أنه يشير إليَّ بمضمونها..

أملأ الأوراق بغضبي ثم أهدأ!

بالطبع لم أكن أبعث إليه بتلك الرسائل، وإنما كنت أنفِّس عما في قلبي، وأساقط على أوراقها ما علق بجراحي من حبات الملح التي كان ينثرها بين اللقاء والآخر!

لم يكن شريرًا أبدًا، أعلم ذلك جيِّدًا، ولكنَّه كان يستخدم الكلمات استخدامًا خاطئًا، ظنًّا منه أنَّه بتلك الطريقة سيكون أكثر أهمِّيَّة في نظري، ونظر من يجلس معه، ولو كان يعلم بالمعلَّقات التي أكتبها عنه قبيل النوم، لانتهى عن تلك المراهقة التي أزعجتني حينًا من الدهر..

كن حازمًا

من تزكية النفس المسكوت عنها مقاومة الرغبة في التقرُّب من أناسٍ يلحقك من الأذى بقدر المسافة التي اقتربتها منهم، عوِّد نفسك الابتعاد عن هؤلاء، صحيح أنَّهم ممتعون، يملؤونك بالأنس المؤقت، ولكن كن حازمًا مع رغباتك المكبوتة هذه.

في الناس مَنْ وصْلُهم يكون بالزيارات المتباعدة، ولو تعهَّدتهم باللقاءات والزيارات المتقاربة خسرتهم، وفيهم من يكون وصْلُهم بالرسائل، ولو وصلتهم بالزيارات خسرتهم، وفيهم من يكون وصْلُهم بالدعاء، ولو وصلتهم بالرسائل خسرتهم.. فبقاء الود وإن قل، خير من القضاء عليه..

أحسن إدارة رغباتك، ولا تحقق لنفسك كل أمانيها، بل أجِمْها عن بعض الناس، حتى لا تتقرَّح رُوحك وهي تمضغ كلماتهم التي لا يعتنون بصياغتها!

ورضي الله عن عمر الفاروق الذي أشاد بأولئك الذين «ينتقون أطايب الكلام، كما تنتقى أطايب الثمر»..

أحد الزملاء علَّمني درسًا رائعًا يقول فيه دائمًا: «المرء حيث يضع نفسه» كان هذا الزميل يشير إلى أن المرء يوزن بمُجالِسه ومُصاحبه، فإنَّ شوك بعض الناس ليس كلماتٍ تنالُك منهم، بل سمعة سيئة تلحقك إذا اقتربت منهم، فلا تضع نفسك مع هؤلاء..

تجهَّمْ قليلاً

بعض المرات تتساقط عليك فاكهة البرشومي دون رغبة منك في ذلك، كأنْ يكون في المجلس شخص لا تعرفه، ويكون ذا مواهب متعددة، فلسانه بطول سور الصين، وشراسته كشراسة بُناة الأهرامات، وجداله كجدال كفار قريش! فمثل هذا: ابنِ بينك وبينه سدًّا كسد ذي القرنين، وأفرغ عليه قطراً..

استعذ بالله من منغصات المجالس، فإنَّ البعض لديه قدرة فائقة على التنكيد، ويستطيع بكلمات قليلة أن يوصلك إلى أعلى مراتب الغضب!

تجهَّم قليلاً حتى لا يستطيع هذا الكائن الدُّلوفَ إلى عالمك،

لأنَّك إن تبسَّطت معه، أخذ وأعطى، وناقش واعترض، وضحك وقهقه، فأنزلك إلى حقل الشوك، فبقيت تنتزع الأشواك، والآخرون لا يستطيعون أن يحددوا: أيُّكما كان فاكهة الشوك!

عامل البعض كما تعامل الأطفال الأشقياء، بالإعراض، وعدم الملاطفة، فإنَّ الطفل الشقي إذا ما اجترأ عليك، فإنَّك تكون مهددًا بكلمة يُنزل بها من هيبتك، أو أن يعُدَّك العنصر الترفيهي في المجلس، أو قد يُتحفك برضّاعته يلقي بها صوبك، لتستقر بين عينيك، وأنت تبتسم، وتمسح عن وجهك بقايا الحليب البارد، وتريد أن تظهر لوالده أنَّ ابنه غاية في اللطافة!

التحف الثمينة

لقد صرنا مجرَّحين بما فيه الكفاية، فلا تعرِّض نفسك لاختبارات اجتماعيَّة، نعم؛ الناس في عمومهم رائعون، ولكن بعض هؤلاء الرائعين لديهم قصور معرفي أو مهاري فيما ينبغي وما لا ينبغي قوله وفعله، بعضهم يُلقي بك من شاهق بحسن نيَّة، وبعضهم يرضخ رأسك بين حجرين دون أن يقصد..

ولكن كما أنَّ الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، فأنت كذلك لا تكلِّفْ نفسك فوق طاقتها.. فلست المسؤول عن جلب السعادة إلى بائعي البرشومي..

أحد الأقارب له حكمة يقولها دائمًا، مفادها: أنْ تجعل بينك وبين الآخرين مسافة كافية، ولا تقرِّب أحدًا منهم إلى مسافة أقصر، حتى تثق كل الثقة أنَّه مؤهل للمكان الذي ستنزله فيه من نفسك.. فالبعض ما إن يدخل حجرات قلبك حتى يشرع في العبث بتحفك الثمينة، فتندم على أنك فتحت له الباب..

الذبول

ستظفر في رحلة عمرك بأناس كالذهب الخالص، هؤلاء تمسَّك بهم، وضحِّ من أجلهم، وتنازل عن الأشياء التي تفضِّلها إن كنت بمعيَّتهم، دعهم يضحكون قليلاً على ترَّهاتك، هؤلاء هم الدواء لروحك، والبلسم لجروحك..

ولكن انتبه، فليس كل الناس هم هذه النوعية، نعم ضحكة

هذا تشبه ضحكة ذاك، ونبرة زيد تشبه نبرة عبيد   ولكن أرجوك لا تجعل من يعُدُّك رقم واحد في قائمته، مثل من لم يُدخلك ضمن قوائمه أصلاً! أفهمت هذا الشيء؟ أرجو ذلك

لا تكن غِرًّا، كلما رأيت وجهًا جديدًا، وأسلوبًا مثيرًا، هِلْت على أصدقاء الأمس تراب العقوق، وضحَّيت بهم لأجل شخص يجيد الحديث، ثم إذا ما دَهِمتك الظروف، وأحاطت بك الكُرَب، إذا أنت تكتشف أن ذلك الذي يجيد الحديث، لا يجيد الوقوف بجانبك.. فتعود إلى أصدقاء الأمس، وقد ذبلت أرواحهم الأصيلة، وبهتت ألوانهم الجميلة..

يمكنك أن تتحدث في مجلس ما مع من تريد، وأن تضحك ما وسعك الضحك، ولكن انتبه؛ فليس الصديق أقراصًا جالبة للضحك والمتعة، الصديق سنوات تراكمت، ومواقف تجمعت، ودموع تحدرت.. فلا تجعل هؤلاء الضاحكين، يسطون على مواقع أولئك النبلاء..

توقيع

في علاقاتك، ومجالسك، وأيامك تحتاج أن تكون حازمًا، حتى لا تصير نادمًا..

أزعم أنّ

قصاصات هاربة من نصوص السوار..

أزعم أنّ

• وسِّع معنى الهديَّة بالكلمات التي تأتي معها، فعبارات الحب، ورحيق الصدق الذي تسكبه فوق هداياك، يكون أهم من الهدايا ذاتها، ويحوّلها إلى أشياء لا تُنسى!

• أشياؤك التي تعتقد أنها عاديَّة، دائمًا هي الأشياء التي يتذكرها الآخرون، لأنَّك قدمتها لهم على طبق من صدق..

• عادة ما يذكِّرنا الآخرون بالأشياء التي لم نتجشَّم في قولها، أو تقديمها، وينسون الأشياء التي دفعنا فيها الأموال الطائلة؟

الناس لا يريدون ما في جيبك.. هم يريدون ما في قلبك.. فأعطهم نبضًا.. وحبًّا.. وصدقًا..

• تُرى كم عدد الأشخاص الذين يتسببون بجلب خير لنا أو دفع شرٍّ عنَّا ونحن لا ندري؟

• هناك أناس بالقرب منك، لا تدرك مقدار الفوائد التي تجنيها بسبب ذلك قربهم منك..

• تُرى ما مدى المخاطر التي كنت ستقع فيها لو كان بعض من حولك على مسافة أبعد من تلك المسافة التي تفصلهم عنك!

• بعض الناس يمكنك أن تعرف أو تتوقَّع فائدتهم، ولكن الأكثر لا تتوقع ولا تظنَّ أن لقربهم منك فائدة، ولا تدرك ما الأشياء التي يفعلونها لأجلك دون أن تدري!

• كم الأشخاص الذين دفعوا إلينا بكراسٍ منعتنا من السقوط، لم نعلم بوجودهم، وواصلنا ارتشاف قهوتنا بهدوء دون أن ندرك السقوط الذي كان ينتظرنا لولا الله ثم وجودهم بالقرب منَّا؟

• إن إدراكك لنبل شخص ما يستجلب شعورا جميلا لا يمكن وصفه، وإن كان الزمن الذي أدَّى فيه نبله قصيرًا جدًّا..

• كم النبلاءُ الذين أنقذك تدخلهم في الوقت المناسب من إحراج ما، أو أسكت وجودهم في مجلس من المجالس غيبة كانت سمعتك هي الوجبة المقترح أن تستقر على طبقها؟

• كم من شخص في شجرة نسبك جعل كثيرًا من التسهيلات المجانيَّة تُقدَّم لك دون أن تشعر؟

• الإسلام يريدك أن تكون مجَّانيًا، تقدِّم خدماتك للآخرين

دون مقابل، أو أن يكون جزء من خدماتك على هذا النحو!

• يجب عليك أن تفرش طريق العطايا بالمجانيَّات.. بالخدمات التي تقدمها دون مردود، وبعد ذلك لا تسل عمَّا سيفعله لك الكريم سبحانه..

• اجعل الجميع محطَّ اهتمامك، وعطائك، وكن أنت بائع (الخردوات) الذي تقف معهم في الوقت المناسب، واللحظة المهمة في حياتهم، ثم إذا انتهت خدمتك النبيلة، تولَّ إلى الظل، في صمت النبلاء..

• تظل الأبوّة نصًّا عظيما لا يمكن أن يفسّر معناه، ويشرح تفاصيله شخص غير الأب!

• يكاد المعلِّم يعرف طلابه الأيتام دون أن يسألهم، هناك شرود في النظرات، شيء يشبه تلمُّس الأعمى لجدار في طريقه، كأنَّهم يتلمَّسون الحياة بحذر.

• الأب يشبه آخر حجر في لعبة (الدومينو) التي رُصَّت بطريقة متتابعة، فإذا ما سقط ذلك الحجر تتابع الكثير من أحلامك بالسقوط! إلا أن يشاء الله.

• ما أكثر أولئك الناجحين الذين كان سيتحوَّل نجاحهم إلى إخفاقات، وإحباطات، وخيبات متوالية؛ لولا الله ثم مساعدة الأب وتشجيعه..

• قرزْ أن تكون أبًا جيِّدًا لأبنائك، حتى وإن كبروا، لا تستغن عنهم أبدًا، بل راقبهم من بعد، فإذا أوشك أحدهم على السقوط، فادفع إليه بكرسيٍّ ليقيه الارتطام على الأرض..

• بعض الناس كالألوان، لا يمكن أن تعلم قيمتهم إلا لحظة اختفائهم، وتحوُّل الحياة من حولك إلى اللون الرمادي القاتم..

• هناك معان تتلاشى مع تلاشي بعض الأشخاص!

• لحظة الفقد من أصعب اللحظات على النفس، وفيها تكتشف كيف أن شخصًا ما كان يعني لك الكثير! مع أنَّك في أيام وجوده لم تكن تدرك ذلك..

• والداك، وإخوتك، وزوجتك، وأبناؤك ومن حولك هؤلاء هم ألوان حياتك، وأكسجين صباحاتك، وعطر زهورك

• املأ ثغور أهلك ابتسامًا، وأرواحهم سعادة، لأنَّ حياتك بهم جنَّة، وستبكي على درجة من درجات سلَّم البؤس ساعة فراق

أحدهم

• الأخ من الأشخاص الذين يبيعون (الخردوات) بالقرب منك، وتنصرف عنك بنظراتهم، أو بوجودهم؛ أشياءُ لا تتوقعها!

• ما أجمل أن تقول شكرًا للذين علمت أنهم جعلوا حياتك جميلة..

• وأجمل من ذلك أن تكون شاكرًا لأولئك الذين لم تعلم ما قدَّموه لك من خدمات، قلها على شكل دعوة، أو شعور بالرضا على هذه الحياة المليئة بهؤلاء النبلاء.

• كن المظلّة التي تحجب عمَّن حولك أشعة الشمس الحارقة، وقطرات المطر الباردة، وكُرَات البَرَد المؤذية.

• الحياة في كثير من فصولها تشبه المشي في منحنيات جبل وعر، وبعض مصاعب الحياة شبيهة بالهاوية التي تكون بين ضفتين في تلك المنحنيات الجبلية، لا بد أن يضحِّي فرد ما بأن يحوِّل جسده إلى جسر ليمرَّ من عليه بقيَّة أفراد المجموعة.

• ها قد شعرت بأهميَّة أناس كثر في حياتك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما أهميَّتك أنت لمن حولك؟

• حاول أن تبيع (الخردوات) بالقرب من أبنائك، أن تمسك المظلَّة للعابرين تحت الشمس، أن تكون الجسر لأولئك الذين هددتهم منحنيات الحياة..

• كن كابن المبارك الذي يستيقظ قبيل الفجر ويضع مساعداته عند بيوت الفقراء دون أن يعلموا به.. ومثل أبي بكر الصديق الذي يأتي في خفية إلى بيت عجوز ويطهو لها طعامها.. قدِّم أشياء جميلة لمن حولك.. دعهم يبكون على فقدك، ويذكرونك بخير..

• كن الشمعة التي لا يتخيَّل من يعيش في ضوئها كيف ستكون حياته لو انطفأت..

• ابتسم، مدَّ يدك لكبير لا يمكنه السير باطمئنان، أفسح لمريد للجلوس، دافع عن غائب، تصدَّق، تحدَّث عن قضيَّة فقير أو مسكين أو مريض في مجمع من الناس لعلَّ يدًا مستطيعة ترفع عنه شيئًا من بؤسه، افعل الخير

• إنَّها الكلمة النبيلة التي تأتي في الوقت المناسب، فتنقذ بريئًا، أو تخفف من عقاب مذنب نادم، أو ترد حقًّا، أو تصنع جمالاً في

الحياة..

• الحياة تحيّي أولئك الذين يسعون إلى إعادة تأهيل الحياة، الذين جعلوا مهمتهم استصلاح تربة النفوس، وغرس الورود، ونشر ثقافة الابتسام.

• ليس شرطًا أن يتمَّ كل ما تراه حقًّا في (أقرب) وقت، بل حاول إتمامه في (أنسب) وقت!

• طبِّق (بعض) مبادئك، حتى يأتي الوقت الذي تستطيع أن تطبِّق فيه (كل) تلك المبادئ إن البعض طريق الكل.

• كلمة نبيلة في وقت الشدة، تساوي كلمات مُلِئتْ نبلاً تقولها وقت السعة..

• كن صاحب الكلمة الأكثر نبلاً، والاقتراح الأعمق نظرةً، والتوقيع الأبقى أثرًا، لا تترك ناقصي المبادئ يعبثون بمبادئك، تكلَّم وخفف ما استطعت من البؤس الذي تكتظ به الحياة، وغلِّف كلامك بالحكمة البالغة، وزيّن أحرفك بالصدق والإحساس النبيل.

• اصرخ بـ «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك (فاخرج) إني لك من

الناصحين»، ابحث عن الضعفاء وأخبرهم أن عليهم أن يخرجوا..

• مهما كانت فكرة «وألقوه في غيابة الجب» بشعة، إلا أنها أقل بشاعة بكثير من فكرة «اقتلوا يوسف»!

• إن هذا الفعل الذي يقلل من حدَّة الشرِّ سرُّ استمرار الخير في الحياة، وإن الذين يجدون الشر قد استطار، فيأتون بكلمة أو اقتراح أو تحوير يسير، يقضي الله به خيرًا عميمًا، ويغلق به باب شرٍّ؛ هم من أولياء الله.

• لا تستنكف عن كلمة قد يستنقذ الله بها حقا كاد يُطمس، أو خيرًا كاد يضيع، أو بريئًا أوشك اجتماع مغلق أن يغلق عليه باب الحياة الكريمة!

• ابنِ جدارًا كاد ينقضُّ، حتى وإن لم تقبض أجر ذلك البناء، يكفي أن تحرس بذلك الفعل النبيل كنزًا لغلامين يتيمين في المدينة..

• النبلاء، يحاربون بالكلمة النبيلة، ويضيفون ويحذفون حتى تغدو الحياة بهم أجمل..

• ولا تعني الكلمة النبيلة أن نظل نلقي الاقتراحات، ونُشير

دون أن نُستشار، ونأمر وننهى، بل تعني أن ندَّخر لكلامنا من صمتنا!

• كل صمت تصمته يضيف لكلامك الذي لم تتكلمه بَعدُ وهجًا، ورونقًا..

• دافع عن الحق الذي لم تخلق السماوات والأرض إلا له وبه.. اجعل ذلك عادتك، عادة لا تحتاج أن تُعلن موعد بدئك بها، إنها مثل أنفاسك تأتي عفوًا دون إدراك كامل منك..

• من أعظم النبل ذلك الذي تفعله لا لأنَّه أمرٌ جميل، بل لأنَّك تشعر بقبح نفسك لو لم تفعله!

• إذا صرت تشعر بقبح هجرانك للأعمال النبيلة، فإنَّك ولو لم تنزل فيك آية لتخبرنا عن تفاصيل نبلك، فإنَّك قد صرت آية، تخبِّر الحياة عن تفاصيلها الجميلة..

• أشعر أننا بحاجة إلى فصل التيار الكهربائي عن الخلايا التي تتعلَّق بالحكم السلبي على الآخرين، دعها تعيش في الظلام، وتهدأ قليلاً، بمكنك أن تجعل هذه الأحكام قرارات مؤجلة، أخِّرها شهرًا أو اثنين، في الوقت متسع لأن تزيد من خانة الكره داخلك..

• نحن نحتاج إلى حدائق الحب في دواخلنا، أكثر من حاجاتنا إلى مستنقعات الكره!

• تأخَّر قليلاً في دفع فاتورة المواقف السلبية، ماطِلْ المشاعر التي تطالبك بسرعة السداد، حتى لا تضطر أن تضاعف قيمة الفاتورة من أعصابك، وسعادتك، وابتسامتك..

• لنتعامل مع الناس وفق ما عرفناه عنهم من الطيبة والسماحة؛ لأن الظاهر بعض المرات لا يعكس شعورًا تجاهنا، وإنَّما يعكس شعورًا داخليًّا لدى الآخر تجاه مشكلة قيَّدت شفتيه عن الابتسامة، وملامحه عن الهدوء.. وجعلت كلماته أكثر حدَّة، وتصرُّفاته أكثر اندفاعًا..

• قد يكون هذا الذي ظننت به السوء بحاجة إلى أن تمدَّ يدك إليه، أكثر من أن تكفَّها عنه..

• الناس أطيب مما تظن، وأجمل مما تتوقع، وقلوبهم مليئة بطيور الحب التي تغرِّد صباح مساء بأجمل الألحان وأعذبها، فلماذا تظن فيهم أسوأ الظنون؟

• لماذا تظن أنَّك الشخص الأهم في هذا الكون، الشخص

الذي تدور حوله المؤامرات، وتحاك ضدَّه الخطط، وتُلفُّ من حوله الأحابيل؟

• أنت يا عزيزي أقل في أعين الناس مما تظن، فليس لديهم وقت فائض حتى يملؤوه بكرهك، أو بعقد جلسات سريَّة للإطاحة بعرشك..

• مشكلتنا أننا -في كثير من الحالات- نعاني أزمة جغرافيَّة مع ذواتنا، فنعتقد أننا نحتل مساحة أكبر مما نحن عليه بالفعل، ولو حرَصنا على معرفة حدودنا الجغرافيَّة بدقَّة، لمزَّقنا خارطة نرجسيَّتنا..

• كثير من سوء الظن ينشأ من عقدة داخليَّة، أقنعتنا هذه العقدة أننا أشخاص غير عاديين، ونستحق أن يحسدنا الآخرون على مواهبنا، وأن أصواتنا مليئة بالشجن، وأوجهنا تتقاطر وسامة، وأعيننا غابات نخيل ساعة السحر!

• ستكون الحياة أجمل، إذا مزجناها بشيء من الشهامة..

• الناس ليسوا بثيابهم، ولا بأجسادهم، وإنَّما بهممهم، وأعمالهم..

• لا تجعل الثياب الرثَّة إحدى أزماتك، ولا تضف إلى عقدك

النفسيَّة عقدة الجسد الهزيل..

• ما الذي يجعلنا نمارس الأستاذية على الآخرين؟ مع أنهم لم يصارحونا برغبتهم في حَنْي الركب لدينا، والتلمذ على ترّهاتنا؟

• لماذا يريد الإنسان الذي بداخلي اجتياح الإنسان الذي بداخلك؟

• لماذا لا تتوقف عمليات المناورة الاجتماعية هذه، لنتصافح من جديد، ولنلغ فكرة أن المجد والتميُّز والنجاح منطقة لا تتسع إلا لجسد واحد، وعقل واحد، وفكرة واحدة!

• لماذا لا نفهم أننا لسنا محور الكون؟ وأنه بإمكاننا أن نكون جيِّدين، دون أن نقضي على جودة وطموح وتميُّز الآخرين؟

• ليس هناك ما يجعل احتقارك للآخرين ضروريًا، فلا تطوِّق نفسك بالمواقف المخجلة، ولا تصب على ذكرياتك الجميلة ذَنوبًا من شعور الخزي.

• كل من حولك لديهم مميزات، وعندهم ما يجعلهم يرون أنفسهم أناسًا ذوي أهميَّة..

• لا تكن المواقف التي تجمعك مع الآخرين هي أسوأ

ذكرياتهم، فلا يذكرونك إلا بمعيَّة صوتك وأنت تحتقر الأشياء التي يظنونها جميلة، ونظراتك وأنت تشير إلى الآخرين أن انظروا؛ إن بحضرتنا غبيًّا ما!

- كن ذكرى جميلة في خيال من حولك..
- كن عطرًا يتضوَّع في ذاكرة الأيام..
- مليئة الحياة بالعلب الفارغة التي تنتظر أن تفجّر نفسها في وجه علاقة حميمة، وصداقة قديمة!
- العلبة الفارغة لا يمكن أن تكون عوضًا عن صديق حميم!
- مكان الصديق الحميم لا تملؤه علبة فارغة أبدًا، بل يملؤه قلب يحب وينبض ويشعر.. أما العلب الفارغة فالمكان المناسب لها هو سلال النفايات
- علمتني العلبة الفارغة ألَّا أستغني عن قلب امتلأ بحبِّي، من أجل علبة امتلأت بالهواء!
- إن أعظم قوّة هي تلك التي تصرع بها نفسك، وتتغلَّب على الطاقة الشريرة التي تريد أن تنقضَّ على من حولك.

• لا تتجرأ أن تفتح أدراج صاحبك الخاصَّة.

• وإذا تجرأت على خصوصيات صاحبك؛ فكن حذِرًا أشد الحذَر، فشياطين بعدد الأيام التي عشتها معه تحيط بكما في تلك اللحظات

• اجعل علاقة الصداقة كالكتاب، تمسكه بقوَّة، وتفتح صفحاته بلطف! أو اجعلها كالوردة، تمسك بأصلها الأخضر بقوَّة، وتلمس رقائقها الملوَّنة بأطراف أصابعك، تستمتع بشكلها ورائحتها، دون محاولة سبر غورها!

• الصَديق هو القريب الذي اخترته بنفسك، والذي فضَّلت أن تكون الوشيجة التي تربطك به أهم من الجينات، وأنصع من الدم، وأطول من سلسلة الأجداد.. إنَّها رابطة الروح!

• الصداقة هي الائتلاف والاندماج الذي لا تستطيع تفسيره كل أجهزة الدنيا، وكل نظريات الكون!

• يبدو أن خانة الصديق في القلب لا تتسع إلا لشخص واحد، فإذا ما دلف إليها اثنان، فإن أحدهما يسطو على ما للآخر من مكانة وحب وتقدير، فإن لم يخرجه سلبه بعض

خصائصه!

• نادرًا ما تسمح الحياة لك بأكثر من صديق!

• الحياة بما فيها علبة فارغة كبيرة الحجم، ولكنَّها لا تستحق أن تكون المعادل الموضوعي لقلب أحبَّك

• حتى الأطفال لديهم قهر يستطيعون أن يوجّهوه إلى بعضهم بإتقان!

• الجهل هو الذي يجعلك تظن أنَّ الاستهزاء هو ممارسة جيّدة؟

• الجهل هو الذي يجعلك تظن أنك في الغد ستخلو مما أثار سخريتك بالآخرين اليوم..

• أهم قاعدة اجتماعيَّة تقول «لا تسخر بأحد» لا تجعل بؤس الآخرين متنفسًا لروحك المأزومة..

• إن لم تمتلك موهبة التربيت على أكتاف من حولك، فلا تمارس هواية ركل مشاعرهم!

• إن فقدت قدرة الاحتضان، فمن الأفضل أن تفقد معها

• الناس لا ينسون، وتاريخك الشخصي لا يرحم

• ليس جميلاً أن تحوي ذاكرة الغد أشياء فعَلْتَها في ماضيك، تستحيي من ذكرها لأبنائك وأحفادك..

• اجعل ماضيك صفحات مروءة، وشهامة، لتتحدث مع أبنائك في الغد بطلاقة، بل لتنام في الغد وأنت مرتاح الضمير، فليس جيدا أن تكون شيخًا في السبعين يمتلك ذاكرة مليئة بالأشياء السيئة!

• حبل الإنقاذ -إن كنت مُصرًّا على إنقاذهم- يُلَفُّ على الأيادي لا على الأعناق!.

• لا تسخر، فهناك أشياء في الحياة تبعث على السعادة والضحك، غير القلوب المحطَّمة، والنفوس الجريحة..

•الوحيد الذي ينبغي أن تحتقره هو نفسك! حينما تحتوي على خلايا تنْشَط وتنتشي لرؤية مخفق ما، أو عاجز ما، أو ضعيف ما!

• لماذا نصرُّ على تحويل كرامة الله لنا، ولطفه بنا إلى عنديَّات امتلكناها بمواهبنا الفريدة، وخصائصنا المميَّزة؟

• هل تظن أن هناك ورقة استبانة جاءت المبتلى في يوم من الأيام، وكانت تحتوي على عنصر يقول: هل تريد أن تبتلى بالعمى؟ أو التأتأة؟ أو الصرع؟ فأجاب بنعم، وأشار على إحدى هذه البلاءات بالموافقة! بما أن هذه الاستبانة لم تقدَّم لصاحبك الذي تسخر منه، فلماذا إذن تسخر؟

• مشكلة عندما تصير حياتك حقلا مليئًا بالعقوبات، فتغدو محاطًا بتلعثمات، وتأتآت، وإخفاقات، وتشوُّهات كنت في غنى عنها، لولا لسانك الطويل، وقلبك القاسي، وإحساسك الميِّت

• لا تفتح نوافذ حياتك على حقول البلاء، وغابات الانتقام

• كما أن هناك أوقاتًا لا تنبعث فيها رائحة زهرة الفل، فهناك ظروف ليست جيِّدة للبعض، وذلك يجعلهم لا يقابلونك بأجمل ما لديهم!

• لحظة ألم شخص ما، هي من اللحظات التي لا تنتظر أن تتضوّع فيها زهرته الشذية

• طبائع البشر غنيَّة بالاختلافات والتقلبات والمستويات التي تجعل كيمياء الروائح بدائيَّة إذا قيست إليها!

• هناك عدَّة عوامل تجعل ابتسامة صاحبك في هذه اللحظة سحرًا جميلاً، وعوامل أخرى تجعل نفس الابتسامة في لحظة أخرى باهتة رماديَّة اللون!

• من الصعب أن نحكم على البشر ونحن نخوض هذه البحيرة الكيميائية التي تتغيَّر فيها المركبات والعناصر وفق الظروف والأحوال والأمزجة والنفسيات!

• أقترح أن نستغني عن ٣٠% من حدَّة مواقفنا، فقد يدفعنا إليها ظرف، أو حال، أو مُدخل غير موضوعيٍّ!

• كثيرة تلك المواقف التي نتحوَّل تحت ضغطها إلى أطفال في مشاعرنا وإحساسنا، فلنبتعد عن ضغط المواقف، ولنتأمَّل الحادثة من بُعد، لعلَّ شيئا من النضج يدركنا

• إذن فلنتخيَّل أنَّهم أجمل مما نظن لنحبَّهم، ونتجاوز عن سيئاتهم، فحتى لو خسرنا الحقيقة بهذا التخيُّل، فلن نخسر الإنسان الجميل الذي داخلنا!

• الناس من حولنا.. سمعنا ورأينا وقرأنا منهم وعنهم أشياء ليست هي أجمل ما لديهم، وليست أنقى ما يملكون من مشاعر،

وليست أرقى ما عندهم من إحساس

• ننسى بسرعة مخيفة المواقف المليئة بالنخوة، التي يمد فيها الآخر يده ليحُولَ بيننا وبين سقوط في حفرة من حفر الحياة!

• أتحدَّث عن نفسي، بعض الأحيان أقرر أن أنتزع اسمًا من قائمة الأصدقاء، لأودعه في قائمة (أناس عرفتهم في يوم ما) وبعد دقائق من التأمُّل أكتشف أنَّه من المفترض أن تكون عندي قائمة (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وأن أضع ذلك الاسم في أعلاها!

• الإنسان هو أعظم كنز تملكه، فإذا ظفرت بكنز بشري، فلا تتعامل معه بحماقة، نعم قد تبرد العلاقة، دعها تبرد بالطريقة التي تعجبها، ولكن أرجوك لا تحرقها.. فقد تندم كثيرًا عندما ترى هشيم قلب كان ينبض بحبِّك !!

• ارفع الأشخاص الذين أحبّوك بصدق، وبذلوا لك بكرم بعيدًا عن متناول مشاعرك الطفولية..

• مسكينة تلك الآراء التي نزعم أننا نؤمن بها، ونحن في الحقيقة لا نؤمن ولا يحزنون..

• قضايا العقل والفكر تستحق أن يُضحّى لأجلها، وأن يخسر الإنسان ماله، واستقراره، ومنصبه، وراحته، بل وحريّته لأجلها، وهناك أناس يغيّرون آراءهم بحسب درجة حرارة المجلس، ويغيِّرونها لأجل قهقهات ستنتثر في أثناء الحوار، ويغيّرونها لأجل إغاظة شخص غير محبوب!

• الرأي ليس معطفاً ترتديه وتنزعه وفق درجة الحرارة؟ وإنما فكرة تغوص في جميع خلايا جسدك، فتحمل كلماتك لونها، وعمقها، وتاريخها..

• وهكذا ترى الشخص يقول بهذا الرأي لا لأنَّه تأمله كثيرًا، وسهر معه الليالي ذوات العدد، لا؛ بل لأنَّه يُظهره في ذلك المجلس أكثر انفتاحًا، أو تحضُّرًا، أو ثقافة، أو جُرأة.

• صارت أفكارنا مثل أقراص المسكِّن، نستخدمها عند الحاجة، ونستغني عنها فيما عدا ذلك! وصرتَ تبحث فيما يقوله الناس عن قول تلمح فيه آثار التأمُّل، وغبار الكتب، وتشعر أنَّه بات شبيهًا بصاحبه لطول تصاحبهما، فلا تجد شيئا من ذلك..

• وكثيرًا ما نزعم أن هذا الرأي هو رأينا، والحقيقة أنَّه ليس

رأينا، وإنَّما هو ما نشأنا عليه، أو هو أوَّل رأي في هذه المسألة نعرفه، أو أنَّ شخصيَّة مميَّزة لدينا أعلنت أن هذا الرأي رأيها.

• مشكلةٌ إذا كان ما نعلمه هو الصواب بسبب أننا نعلمه!

• يجب أن نفرِّق بين آرائنا، وآراء الذين نحبُّهم! فليس من لوازم المحبَّة استنساخ المعتقد، والتشبُّه بالآخرين في وجهات نظرهم..

• البطولة هي ألَّا تكذب على نفسك!

• الانهزام التام هو ألَّا تستطيع أن تصارح نفسك بحقيقتها..

• للإنسان عينان يرى بإحداهما من حوله، وأخرى يرى بها ذاته، فإن فقدت الأولى لأي سبب، فمن المستحسن أن تحافظ على الثانية، لأنك إن فقدتها فهذا لا يعني أن الله سيعوِّضك عنهما الجنة، بل يعني أنَّك ستظل بقيَّة حياتك تتردَّى في مهاوي العماء..

• كن صادقًا مع نفسك وأخبرها أنَّ هذا الرأي قلت به لأجل أنَّه مريح، أو لأجل أنَّك زعمت –تحت إلحاح موقف– إيمانك به، ثم لم تستطع –بسبب ضغط الموقف– أن تتراجع عنه..

• لا تكذب على نفسك وتزعم لها أنَّك تؤمن بهذا القول

الإيمان الكامل.. وأنت في الحقيقة لم تعرفه إلا قبل خمس دقائق بالضبط! لا تخطئ في حق نفسك، وتملأها بالمزاعم..

• الجريمة في حق الذات تكمن عندما نكذب على هذه الذات ونريد أن نقنعها أننا بالفعل نؤمن بتلك الآراء، وبأننا شجعان، وصادقون..

• كن شجاعًا في اعترافك بالخوف..

• للمناظرة لذة خاصة، وسَكْرة قد تُنسي المتحدِّث ألف باء التقوى..

• مما ينبغي أن ينتبه له المحاور، أنَّه ليس من ضمن الثلاثة الذين رُفع عنهم قلم التكليف، وعلى هذا فلا يُطلق للسانه العِنان حتى يقول ما يشاء..

• مجرَّد إضحاك الآخرين قد يجعل البعض يقول كلامًا هو للكفر أقرب منه للإيمان..

• كثير من الحوارات ليس سببها أنَّ الكلام المذكور لا يمكن فهمه، بل لأنَّه لم يسبق علمه!

• لماذا بات الحوار هو المكوِّن الرئيس لمجالسنا، وبات ثقافة

نتداولها بعُجَرها وبُجَرها؟ دون اللياقة الكافية التي تؤهلنا أن نعترف بخطأ جدالي، وتأجيل نصر حواري، وتنازل عن رأي فطير؟

• لا تحتاجُ حتى تُثبت أهميّتك أن تعبث بأفكاري ولن أحتاج حتى أنال احترامك أن أكذب عليك وأزعُم أني مؤمنٌ بفكرة، وأنا غير مؤمنٍ بها حقيقة..

• هناك أشخاص بمصاحبتك لهم تخسر أكثر مما تربح! تتأذى أكثر من كونك تستمتع، تنغزكِ أشواك ألسنتهم، فتقضي زمنًا من عمرك وأنت تحاول نزع تلك الأشواك من أعماق فؤادك..

• يتمتَّعون بالقدرة على المساس بالأمور التي يزعجك أن تُمس، بل إن بعضهم لديه موهبة خاصة في استفزازك وأنت في أشد حالاتك هدوءًا واتزانًا!

• هم يريدون أن يجعلوا من خصوصيَّاتك (كرة تنس) يتبادلونها بينهم، ويستخدمون سيرتك الذاتية لإزجاء أوقات فراغهم، ويعدون إخفاقاتك مكانًا جيِّدًا لغرس شتلات البرشومي..

• يجدون دائمًا في شؤونك الخاصة مساحة لا بأس بها تصلح لأن يمارسوا فيها رياضة الجولف، وتعلُّم مهارات لعبة المبارزة!

- لديهم عُقَد غريبة، ومن أغربها أنّك الشخص الذي تستطيع إخراج سقراط الذي داخلهم، وبلورة الفلسفة الأفلاطونية التي في جماجمهم، ويمكنك تحويل ملامحهم إلى ملامح أرسطو وهم ينثرون التوجيهات من حولك!

- من تزكية النفس المسكوت عنها مقاومة الرغبة في التقرُّب من أناسٍ يلحقك من الأذى بقدر المسافة التي اقتربتها منهم، عوِّد نفسك الابتعاد عن هؤلاء..

- عامل البعض كما تعامل الأطفال الأشقياء، بالإعراض، وعدم الملاطفة

الخاتمة

وختامًا

أرجو أن يكون القارئ قد وجد في هذه الكلمات شيئا يجعل نظرته لنفسه أجمل، ومعرفته بمن حوله أشمل، وفهمه لحياته أكمل..

ووجد شيئًا يبغِّض في نفسه الشر الذي باتت بعض النفوس تنساق معه انسياقًا، وكاد ينطبق على بعض الأرواح انطباقًا..

وأرجو أن أكون بهذا الكتاب قد زرعت ابتسامة في ثغر إنسان شوَّهه العبوس، وأضأت شمعة في حياة إنسان أوحشه الظلام، وقلعت شوكة من بستان إنسان آلمته الخدوش..

اللهم تقبَّل عملي، واغفر زللي، وتجاوز عمَّا تعلمه من سوء النيَّة.. واجعلني في الغد خيرًا منِّي في اليوم.. برحمتك، وبإحسانك، وبتجاوزك يا الله..

اللهم اغفر لي ولوالديَّ ولكل من علمني وللقارئ وللمسلمين..

اللهم أصلح لي النيَّة   والذريَّة   وسائر عملي

إن تقبلت عملاً   فذمُّ الناس لا ينقصه

وإن رددت عملا   فمدحُ الناس لا يزيده

وصلى الله وسلم وبارك على النبي الكريم، وعلى آله وصحابته ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين

الفقير إلى عفو ربه

علي جابر الفيفي

شكراً

الحمد لله أولا وأخيرا.. ثم

شكرًا لزوجتي الفاضلة أم باسل ..
كل يوم أتأكد أنكِ من النعم التي أعجز عن شكرها..

شكرًا لبناتي بشرى وهديل وسها..
شكرًا لأبنائي باسل وأنس..
لقد هيأتم لي أجواء ساهمت في إنجاز الكتاب..

شكرًا لكل من أفادني في هذه الحياة :
علمًا، أو خلقًا، أو حكمة

وشكر خاص للشيخ القدير أبي مالك العوضي على ما تفضّل به من جهد وتشجيع..

فهرس

سواء أمي

علي بن جابر الفيفي
ali_alfaifi@

تحدثت في هذا الكتاب عن الأم وقلبها النابض، والأب وحنانه الدافق، والمعلم وحدبه على تلاميذه، والأخ الذي يقاسم أخاه الروح والنبضات والأحلام والخطرات، والصديق الذي يجمّل وجوده الحياة.. تحدثت أيضا عن الكلمة النبيلة، والأخرى المسكونة شرًا، تحدثت عن الشهامة، وعن الطيبة التي تمتلئ بها قلوب الناس، وقلت شيئا عن أمراض النفوس، وأدواء القلوب.. لم آت في الكتاب بالمستغرب، ولم أستجلب العجائب، أو أنقب عن الشرائد .. بل حاولت أن أنظر إلى المناظر نفسها، وأتأمل المشاهد نفسها التي يراها الجميع، ولكني استخدمت عدسة أخرى، هي عدسة ذاتية بحتة، تحمل ألواني الخاصة، وتجربتي المتواضعة.. فأتيت بالمعروف، المشهور، ثم أعدت إنتاجه وصياغته، بضرب مثال، أو مزيد توضيح، أو إضافة ظلال..